بقلم: يوچين يفتوشنكو
ترجمة: حليم أحمد طوسون

حياة شاعر

حياة شاعر

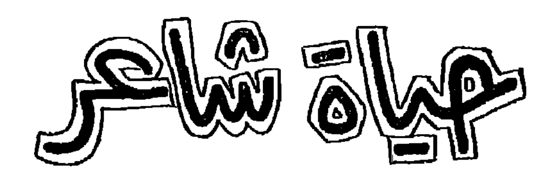
بقلم: يوجين يفتوشنكو
ترجمة: حليم أحمد طوسون

يوجين يفتوشنكو

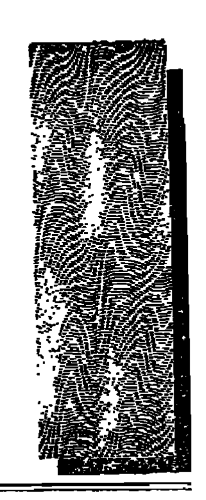
اهداءات ٢٠٠٢

ا د/سامى خشبه

القاهرة



ترجمة : حليم أحمد طوسون



تقديم

زارنا الشاعر السوفييتي الشاب ، يوجين افتوشنكو ، واستمعنا الى قصائده وتراجمها ، وأشاد الجميع بطريقته الفريدة في الالقاء ، ولكن الكثيرين تساءلوا عن سر شهرته في أنحاء العالم الذى يجوبه ، بالرغم من أنه يلقى قصائده بلغة لا يفهمها مستمعوه ، وتفقد الكثير من قيمتها من خلال الترجمة •

والحق أننا لن نستطيع أن نفهم هذا الشاعر ، ونقيم دوره وندرك مدى بلاغته الا من خلال الظروف التى برز فيها ، ومن خلال مواقفه من قضايا العصر • وهذه الظروف ، وتلك المواقف لا تخصه وحده بل تعبر عن أفكار وآمال قطاع كامل من الشباب السوفييتى فى ظل الأوضاع الجديدة التى عرفتها بلاده بعد انقضاء مرحلة عبادة الفرد •

ومن هنا تبرز أهمية هذه السيرة الذاتية التى كتبها افتوشنكو فى عام ١٩٦٣ • فقد يسافر المرء الى الاتحاد السوفييتى ، ويتجول فى مختلف أنحائه ، ويشاهد العديد من أوجه الحياة هناك ،

ويتعرف على النـاس ، ويتلمس آثار الصراع بين أنصـار الجمود والمتطلعين الى التطبيق المرن للفكر الاشتراكى العالمى .. وهذا كل ما فى الأمر .. أما هذه المذكرات فتتيح للقارىء فرصة تفهم حقائق عميقة فى حياة الشعب السوفييتى .. خفيت على الناس فى خضم الدعايات المغرضة المنظمة ضده .

ولا يمكننا أن نعزو تألق هذا الشاعر فى المحيطين الدولى والمحلى الى موهبته الشعرية التى لا ينفرد بها وحـده وانما ترجع شـعبيته على الأرجح الى صـدقه واخلاصـه فى التعبير بحرارة وجسـارة ، من خلال تجربته الشخصية ، عن ضمير أغلبية شعب عاني أكثر من غيره من أهوال الحرب العالمية الثانية وعاش مآسى عبادة الفرد بكل كيانه .

كتب افتوشنكو هذه المذكرات لمجلة ((اكسبريس)) الفرنسية التى نشرتها على حلقات ، ثم صدرت فى كتاب مع مجموعة قصائد له تحت عنوان « سيرة ذاتية مبكرة » .

وقد نقد خروتشوف تصرفات هـذا الشاعر وآراءه فى خطاب شهير ألقاه فى اجتماع للأدباء والفنانين السوفييت فى مارس ١٩٦٣ . وفى نفس هـــذا الاجتماع اتهمه عـدد من زملائه بالغرور وبمحاولة تسليط الأضواء على شخصه بأسلوب رخيص وعلى حساب سمعة بلاده . وقد اعترف افتوشنكو بخطئه ، وقال أمام هذا الجمع من الأدباء والفنانين : انه تورط فيما أقدم عليه ، وأنه ما قصـد أبدا تشويه وجه الشيوعية . ونقد نفسه لأنه أتاح للغرب فرصة اساءة استغلال ما كتبه واتهم مجلة « اكسبريس » بتعمد تشويه كلامه .

ولكن ، بالرغم من العاصفة التى ثارت حول هـذه المذكرات ، والشك فى مدى مطابقتها لحقيقة ما أراد أن يقوله افتوشنكو ، فان ما جاء فيهـا لا ينتقص بأى حـال من الأحـوال من قيمتهـا فى مجموعها .

المترجم

حياة شاعر

بقلم :

يفجين يفتوشنكو

سيرة الشاعر هي مجموع قصائده ، وما عدا ذلك فمجرد تعليق .

وعلى الشاعر ان يتقدم الى قرائه بمشاعره وأفكاره وأعماله .

ولكي يحق له التعبير عن حقيقة الآخرين ، عليه أن يدفع الثمن ، عليه ان يسلم نفسه بلا رحمة للحقيقة .

والخداع محظور عليه ، فاذا حاول أن تكون له شخصيتان : الرجل الحقيقي من جهة ، والرجل الذي يعبر من جهة أخرى ، فسيجد نفسه عقيما لا محالة .

فعندما أصبح « رامبو » (١) نخاسا ، وتناقضت تصرفاته مع مثله الشعرية ، كف عن الكتابة وهذا حل شريف .

ولكن هناك للأسف أمثلة أخرى : فالبعض يصر على الكتابة حتى عندما لا تتمشى حياته مع أشعاره . وينتقم الشعر منهم ويهجرهم . فالشعر امرأة تبحث عن الضغائن ولا يمكنها أن تغتفر الكذب ولا حتى أنصاف الحقائق .

ويتفاخر البعض بأنهم لم يكذبوا ابدا ، فلينظروا الى أنفسهم فى المرآة وليقولوا لنا : لاكم مرة تلفظوا بما يخالف الحقائق ولكن كم مرة فضلوا ببساطة راحة السكوت .

وأعرف أن هؤلاء القوم يقدمون مبررا اخترعه اخوتهم من قبل : السكوت من ذهب ، وانا أقول لهم : هذا الذهب لا يمكن أن يكون نقيا ، وسكوتهم بضاعة رخيصة ، وهذا صحيح بالنسبة لكل الأحياء ، ولكنه أصح مائة مرة بالنسبة للشعراء الذين يتعين عليهم تجسيد الحقيقة ، فعندما يبدأ الشاعر بالتغاضى عن حقيقته فهو ينتهى حتما بالسكوت على حقائق الآخرين وآلامهم ومآسيهم .

---

(١) شاعر فرنسى من النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، رائد المدرسة الحديثة فى فرنسا ، هجر الشعر فى سن الرابعة والعشرين ومر بمصر فى طريقه الى الحبشة حيث استقر هناك واشتغل بتجارة الرقيق والبن ـ المترجم .

أنا الشاعر :

لقد رفض كثير من الشعراء السوفييت ان يكشفوا ، لمدة طويلة ، عن أفكارهم الخاصة وتناقضاتهم ومشاكلهم الشخصية المعقدة ، فوصلوا فى نهاية الأمر ، وبشكل طبيعى ، الى السكوت على ما يتعلق بالناس المحيطين بهم .

فذات يوم أسس الشعراء الشيوعيون بعد الثورة جمعية « الثقافة البروليتارية » وقرروا ألا يتكلموا الا بصيغة الجمع وأن يقولوا : « نحن » متوهمين بسذاجة أنهم يخدعون بذلك مثلهم . وعبثا قرعوا طبول مواهبهم لكى يخنقوا أنغامهم الجميلة .

وكتب الذين خلفوهم بصيغة المفرد ، ولكنهم كانوا لا يزالون يحملون عبء هذا إل « نحن » ، فاذا قال أحدهم : « أنا أحب » سمعنا « نحن نحب » من فرط وقوعهم أسرى الافتعال .

وفى تلك الفترة تفنن نقادنا الأدبيون فى اختراع نظرية « البطل الغنائى » Héros lyrique فأعلنوا أنه يتعين على الكاتب أن يتغنى « بالفضائل العليا » ، وعليه أن يبدو فى أعماله لا كما هو ، بل كنموذج للرجل الكامل . وكثيرا ما كتب مريدو هذه النظرية ما كانوا يتصورونه قصائد عن سيرهم الشخصية . وبالفعل نجد فى هذه القصائد أسماء المدن التى ولدوا فيها وأسماء البلاد التى زاروها وغير ذلك من التفاصيل الشخصية . غير أن هذه الأعمال كانت خاوية حتى انه من الصعب أحيانا التمييز بينها .

بالطبع أعرف أنه كان لدى بعضهم القدر الكافى من الموهبة الذى يسمح لهم بالتعبير بشكل موفق أكثر من الآخرين . غير ان افكارهم كانت نسخا مكررة ، فالأحياء لا يتميزون بالشكل الذى يتخـذه أسلوبهم فى التعبير ولكنهم يتميزون بأفكارهم الفريدة ، ولا يمكن ان توجد سيرة شخصية حقيقية لا تعبر عما يحمله كل شخص فى نفسه من تفرد غير قابل للتقليد .

لا أريد هنا أن أدين كل الشعر السوفييتى ، ولا أريد أن أتهمه بتشويه « أنا » الشاعر .

فمهما كتب ماياكوفسكى قائلا : « نحن » فهو ماياكوفسكى ، أما « أنا » باسترناك فهى بالضبط « أنا » باسترناك .

واستطيع ان أذكر كثيرا من الشعراء لهم الفضل العظيم فى الاحتفاظ بشخصيتهم فى هذه الفترة ولكن أسماءهم لا تعنى كثيرا القراء الغربيين .

واعمال الشاعر الحقيقى صورة حية نابضة تتجول وتتكلم عن زمنه ، ولكنها فى نفس الوقت صورته الشخصية الثابتة الكاملة .

واذا كنت أومن بذلك ، فلماذا قبلت اذن ان اكتب هذه السيرة الشخصية ؟ لأن الشعر لا يمكن أن يترجم جيدا ، ولأن الناس فى الغرب يعرفون بعض المقالات التى تعطى عنى صورة تختلف تماما عن الحقيقة بدلا من أن يعرفوا شعرى .

لقد ارادوا أن يجعلوا منى صورة مستقلة تبرز ، على ما يبدو ، كنقطة مضيئة على أرضية المجتمع السوفييتى القـــاتمة ، ولكنى لست هذه الصورة .

فهناك عدد كبير من المواطنين السوفييت الذين يكرهون بنفس القوة كل ما اكافح ضده .

وكل ما هو عزيز على ، وما أكافح من أجله ، عزيز أيضا لدى عدد لا يحصى من السوفييت .

واعرف أن هناك رجالا قادرين على طبع عصرهم بأفكارهم الشخصية ، يقدمونها لمجتمعهم كما لو كانت أسلحة فى المعركة ، وهذه اسمى أشكال الخلق الفكرى ، ولكنى للأسف لا أنتمى لهذه الفئة الخلاقة .

الأفكار الجديدة والأحاسيس الجديدة التى توجد فى قصائدى عاشت فى المجتمع السوفييتى قبل أن أبدأ فى الكتابة بكثير . حقا انها لم تتخذ قالبا شعريا ، ولكن لو انى لم اعبر عنها لعبر عنها شخص آخر .

ستقولون انى أناقض نفسى من صفحة الى اخرى . فبعد أن اشـدت بفردية الشـاعر التى لا يمكن فصلها عنه ، رحت اتغنى بالأفكار الجماعية ، غير أن هذا التناقض زائف .

اعتقد انه يجب أن يكون للمرء شخصيته المستقلة المحددة لكى يستطيع أن يعبر بأعماله عما هو مشترك بين عدد كبير من البشر .

وطموحى كشاعر لا يتعدى هذا . أود أن اكون قادرا ، طيلة حيـاتى ، على نقـل همسات الآخرين دون أن أتنكر لذاتى ، وعلى كل فيقينى أنى يوم افقـد الـ « أنا » فسـأفقد فى نفس الوقت القدرة على الكتابة .

جدى « أطلق الديك الأحمر » :

ولكن من انا ؟

ولدت فى ١٨ من يوليو عام ١٩٣٣ـ فى محطة سيبيرية صغيرة بعيدة تسمى زيما بالقرب من بحيرة بيكال . وعائلة افتوشنكو من اصل اوكرانى ، وقيل لى ان أحد أجدادى ، وهو فلاح من منطقة جيتوبر ، نفى الى هنا لأنه « أطلق الديك الأحمر » على السيد الاقطاعى . وتعبير اطلاق الديك الأحمر يعنى فى الروسية الشعبية ببساطة « اشعال الحريق » ويبدو لى أن هذا التفسير العائلى مفتاح احساسى الشخصى الذى لا أستطيع أن أقاومه ، فكل مرة قابلت فيها شخصا يتمتع بعقلية السادة الاقطاعيين ، أحسست برغبة حارة فى احراقه .

لم تنطق كلمة الثورة فى عائلتنا أبدا بلهجة الخطب الرسمية الحماسية ، كنا نقول هذه الكلمة بهدوء وحنان وبشىء من الصراحة ، لأن الثورة كانت عقيدة العائلة .

كان جدى « ارمولاى افتوشنكو » جنديا بسيطا نصف متعلم ، وأصبح خلال الحرب العالمية الأولى أحد المحركين والمنظمين الأساسيين للحركة الثورية الفلاحية فى الأورال وسيبيريا الشرقية . وقد ذهب ، بعد انتصارنا ، الى الأكاديمية العسكرية الحمراء فى موسكو ، وعاد منها « أميرالاى » وأسند اليه منصب هام كمساعد

للقائد العام للمدفعية في جمهورية روسيا ، ولكنه ظل فلاحا بسيطا يؤمن ايمانا راسخا بالثورة حتى وهو فى ملابسه العسكرية الرسمية الفخمة ، وشارات رتبته العسكرية على صدره .

لقد رأيت جدى لآخر مرة فى عام ١٩٣٨ ؛ كان عمرى خمس سنوات فقط ولكنى لازلت أذكر جيدا مقابلتنا الأخيرة .

كنت قد غيرت ملابسى واندسست فى سريرى عندما دخل غرفتى . جلس كعادته على حافة سريرى وكان يمسك بيده علبة شيكولاته بها مشروب روحى ، ناولها لى ورأيت ، ككل يوم ، نظراته الشقية الضاحكة تحت حواجبه الكثة ، ولكنها كانت تبدو لى فى هذا اليوم ، مقبضة بشكل غير عادى .

وأخرج جدى من جيب مسدسه زجاجة فودكا صغيرة ، ربع لتر ، وبعد أن أعطانى الحلويات قال لى :

« أريد أن أشرب معك الليلة ، الفودكا لى والشيكولاته بالمشروب الروحى لك » ثم أطار السدادة بضربة قوية ببطن يده على قاع الزجاجة ، وأخرجت أنا احدى قطع الحلوى من العلبة .

وسألته بخجل ، مقلدا كلام الكبار :

« نخب من نشرب ؟ » .

وأجاب جدى بصوت عميق هادىء :

« نخب الثورة » .

ورفعت أنا قطعة الحلوى ورفع هو زجاجته وأفرغها دفعة واحدة ، وأمرنى جدى قائلا : « والآن ٠٠نم » ٠٠ وأطفأ النور وعاد ليجلس على حافة سريرى . لم أعد أرى وجهه ولكنى كنت أشعر انه ينظر الى بتمعن .

وراح جدى يغنى بصوت هادىء . فغنى الحان الأسرى الحزينة ، وأغانى الاضرابات والمظاهرات العمالية وأناشيد الكفاح فى الحرب الأهلية ، وغلبنى النوم .

لم أر جدى بعد ذلك أبدا .. قالت لى امى انه سافر بعيدا . وكيف كان يمكننى أن أعرف انه قبض عليه فى نفس الليلة بتهمة الخيانة العظمى ؟ كيف كان يمكننى أن أخمن أن أمى قضت عدة ليال واقفة فى الشوارع ، شارع سكوت البحر ، بين النساء اللاتى كن يحاولن أن يعرفن ما اذا كان آباؤهن وأزواجهن واخوتهن على قيد الحياة ؟

لم أعرف الا متأخرا جدا سر اختفاء جدى الآخر ، وهو عالم رياضى ذو ظهر مقوس ولحية بيضاء جميلة ، وهو ليتوانى الأصل يدعى « رودولف جانيوس » ومازالت كتبه فى الهندسة تعتبر من المراجع فى المدارس السوفييتية ، ولكنه قبض عليه « كجاسوس ليتوانى » .

لم أكن أعرف شيئا عن كل هذا . كنت أذهب مع أبى وأمى الى مظاهرات الكادحين فى الميدان الأحمر ، وكنت أتوسل الى أبى لكى يرفعنى عاليا فوق كتفيه حتى أستطيع أن أرى ستالين ، وكنت الوح برايتى الحمراء الصغيرة وأنا مرفوع بين ذراعى والدى فوق الحشود الهائلة ، وكنت اتصور ان ستالين يرد على وينظر لى شخصيا .

آه ، لو تعلمون كم كنت أحسد هؤلاء الأطفال السعداء الذين اختيروا ليقدموا الزهور لستالين ! . كان يربت بلطف على شعرهم وكان يبتسم لهم من تحت شواربه الشهيرة بابتسامته المعهودة .

ان محاولة تفسير عبادة شخص ستالين بالقهر فقط لهو تفسير بدائى . وأنا لا اشك فى أن ستالين كان له تأثير السحر ، والواقع

ان عددا كبيرا من البلاشفة القدامى الذين قبض عليهم واسيئت معاملتهم ظلوا يعتقـدون أنهم اضطهدوا دون علمه ، ولم يعترفوا أبدا بأنه هو الذى أمر شخصيا بما حل بهم ، وكان الكثيرون منهم يكتبون بدمهم على حوائط زنازينهم بعد اعادتهم من التعذيب : « عاش ستالين » .

ألم يكن الشعب السوفييتي يعرف ضحية من هو ؟ أحقا لم يكن يرى ما يحدث حوله ؟ أعتقد أن أكثرهم كانوا يرفضون مواجهة الحقيقة . كان كل واحد يشعر بذلك بشكل غريزى ، ولكنه كان لا يريد أن يصدق ما يهمس به قلبه . كان عكس هذا قاسيا جدا وفظيعا جدا .

كان الشعب الروسى يفضل أن يعمل بدلا من أن يحلل . كان يبنى المحطة الكهربائية تلو المحطة الكهربائية باصرار بطولى قلما عرف التاريخ مثله .

كان يعمل بلا هوادة حتى يخنق ضجيج الآلات والجرارات والبلدوزرات ، الصرخات والتنهـدات التى كانت تنبعث من خلف الأسلاك الشائكة فى معسكرات الاعتقال فى سيبيريا .

كان من المستحيل بالطبع تجاهل هذه التصرفات . كانت أكبر المخاطر التى تهدد الشعب يوما بعد يوم ، الانفصام بين سلوكه ومعتقداته . وحتى نحن الأطفال كنا نحس بذلك بشكل غريزى ، وكان الكبار يحموننا من الحقيقة بكل الوسائل ولكن جهودهم كانت تؤكد تناقض العالم الذى يحيط بنا .

كان أبى وامى شخصين مختلفين تماما ، بل كانا متناقضين ، ولا يدهشنى أنهما افترقا فى نهاية الأمر ، ولكنهما لم يفترقا لأسباب سياسية كما ارادت أن توحى بذلك « التايم » بشكل غادر .

قصة كرافتة :

تقابل والداى فى معهد « الجيولوجيا » حيث كانا طالبين .. كان ذلك فى العقد الثانى من هـذا القرن . وكان أبناء العمـال والفلاحين يتمتعون بأقدمية الدخول فى الجامعات كرد فعل طبيعى لمظالم فترة القيصرية حيث كان التعليم امتيازا للأغنياء .

ولكن ، كما يحدث فى كل عملية رفع المظالم ، ترتكب مظالم جديدة ، وقد يكون فى اللغة الروسية لفظ محدد مبتكر للتعبير عن هـذه الظاهرة ويطلق عليهـا « بيريجيت » Peregib ومعناه ثنى شىء فى الاتجاه المضاد لتقويمه .

كانت الحياة شاقة بالنسبة لأبناء المثقفين من أمثال أبى فى فترة « البيريجيت » كانوا يبدون كالغربان البيض وسط زملائهم البروليتاريين ، كانوا يراقبون ويتعقبون وقد اتهم أبى ذات مرة فى أحد اجتماعات الشبيبة الشيوعية بأنه ذو ميول بورجوازية لأنه يضع ربطة عنق .

وقد روى لى أبى هذه الحكاية منذ عهد قريب جدا ، عندما منعنا مطعم كبير فى موسكو من الدخول لأننا لم نكن نرتدى نحن الاثنين ربطة عنق .

ولم تمنعه هذه المضايقات من الارتباط بفتاة رقيقة بروليتارية حقا ، شديدة المغالاة فى مبادئها الثورية ، هذه الفتاة كانت أمى ،

كانت ترتدى دائما احذية المكافحات ذات الرقبة ، وقميصا رجاليا روسيا مطرزا يسمى « الكوزوفوروتكا » .

لم يكن لدى والدتى ، ذات الأصل السيبيرى ، نفس العناد الفكرى الذى لدى أبى ، ولكنها كانت تعرف معنى الأرض ومعنى العمل . واذا كنت أعترف بجميل أبى لأنه علمنى منذ نعومة أظافرى حب الكتب ، فانى لست أقل اعترافا بالجميل لأمى لأنها علمتنى حب الأرض وحب العمل ، وأعتقد أنى نصف مثقف ، نصف فلاح ، وأظن أنى سأظل كذلك ، وقد يكون الوضع الأول معطلا بالنسبة لبعض رجال الفكر البحت ولكن الثانى يعوض بشكل كبير قصورى ، وذلك بوقايتى من العثرة التى يتردى فيها كثير من المثقفين وهى التعالى .

لقد قرأ أبى كثيرا ، وكان بارعا فى التاريخ على وجه خاص . ولذا كان يحب أن يحكى لى وانا لا ازال طفلا بعد ، لا أعى تماما ، قصة سقوط نابليون ومحاكم التفتيش الاسبانية وحرب الوردتين وخصوصا قصة وليام اورانج . ويبدو لى انه كان يرى من خلال هذه الأحداث بوادر مشكلة كانت تلح عليه ، الا وهى العلاقة بين المثقفين والثورة . أما أنا فلم أكن معجبا بوليام أورانج . كان بطلى ، ومازال حتى الآن «تل أولنسبيجل»(١) كم أود أن أكون تل أولنسبيجل عصر الذرة ! ، بقلب يخفق لطبقته ولكل الذين ماتوا ظلما من أجل سعادة الانسان ! .

---

(١) تل أولنسبيجل « Till Eulenspiegel » شخصية اسطورية لبطل شعبى بلجيكى مرح فى أيام حرب التحرير للبلاد الواطئة من حكم الملكية الاسبانية فى القرن السادس عشر ، فى رواية كبيرة للشاعر البلجيكى شارل دى كوستر «charles Coster» ــ المترجم .

اريد أن أكون تل أولنسبيجل الذى يضرب فى الأرض وينشد اغنيته المثيرة التى تدعو الرجال الى الكفاح من أجل العدالة ، أريد أن أكون تل أولنسبيجل الذى يزدرى رجال محاكم التفتيش أيا كان مسقط رأسهم ، والذى يسخر من كل الذين لا يحلمون الا بملء بطونهم والنوم فى دعة ! .

وأنا أدين لأبى بما قرأه لى من قصص تل أولنسبيجل منذ نعومة أظفارى . كان لأبى ذاكرة حادة ، كان يحفظ عن ظهر قلب عددا كبيرا من القصائد يجيد قراءتها كما يجيد ترديدها . كان يحب ليرمنتوف وجوته وادجار الان بو وكيبلينج وكان يقرأ « اذا » لكيبلينج بقوة كادت تجعلنى أعتقد أنه هو الذى كتبها . وبالفعل كان ابى يكتب الشعر ، ولا شك فى انه كان ذا موهبة حقيقية .

وما زالت هذه الأبيات الأربعة التى كتبها وهو فى الرابعة عشرة من عمره تهزنى رقتها :

اريد أن أعود
حتى أتخلص من الملل
ولكن النجوم مرتفعة جدا
وثمنها ايضا مرتفع جدا

كنت أعرف القراءة والكتابة فى سن السادسة بفضل ابى ، وفى سن الثامنة كنت اقرأ كتب مكتبته بانتظام : ديماس ، فلوبير ، شيلر ، بلزاك ، دانتى ، موباسان ، تولستوى ، بوكاشيو ، شكسبير ، جييد ، لندن ، سرفانتس وحتى ولز . ويستطيع المرء أن يتصور السلطة الروسية التى ملأت راسى . وعشت فى عالم من الأوهام لا أرى أى شىء أو أى شخص حولى حتى انى لم ألاحظ ان أبى وأمى كانا قد انفصلا وأنهما أخفيا ذلك عنى فقط .

هكذا كنت في ٢٢ من يونيو ١٩٤١ ، يوم عـدوان ألمانيا على بلادى ، صبيا رومانتيكيا مقتنعا تماما بأن الناس يشقون فى الكتب فقط .

كانت بداية الحرب تبدو لى زاهية الألوان . كنت أتفرج على الكشافات وهي تمسح سماء موسكو ليلا . لم تكن تثير خوفى بل كانت تثير اعجابي . كنت احب حتى أنين الصـفارات التى تنذر بالغارات الجوية ، وكنت أحسد الكبار لأنهم كانوا يحصـلون على خوذات جميلة وبنادق ويسافرون الى هذا البلد الخيـالى المثير الذى يسمى الجبهة .

والحق أن الجرحى الذين كانوا يعودون من هـذا البلد كانوا قليلى الكلام .

وفى خريف ١٩٤١ رحلت من موسكو الى سيبيريا مع عدد كبير من الأطفال فى سنى . وقد سافرت لمدة تزيد عن شهر فى قطار مكون من حوالى ستين عربة خاصة بالنساء والأطفال قبل أن أصل الى زيما .

كانت ستون عربة من عربات الشقاء والدموع تشق روسيا ببطء نحو سيبيريا وكانت هنـاك قطارات مليئة بالأسلحة تجرى فى الاتجاه المضاد نحوالجبهة ، وكانت تظهر من أبواب التبلوتشكى(١) وجوه الجنود الشابة الصبيحة . لم أعد أرى خوذاتهم وبنادقهم جميلة بشـكل خاص ، ولم أعد أعتقد أنهم سعداء لأنهم مسافرون للحرب حتى عندما كان يصل الى مسامعى ، من عرباتهم ، الايقاع السريع للأغانى الروسية وصوت الاكورديون الذى يفيض حيوية .

---

(١) « تبلوتشكى » : تسمية روسية لعربات المواشى « السـبنـات » المزودة بدفايات لنقل الجنود . تبلو بالروسية تعنى دافىء ـ المترجم .

الزيجات الفظيعة :

وفى زيما شهدت المنظر الذى أثر على وكان انطباعه شديدا على حياتى ، وهو زيجات ١٩٤١ .

لقد كانوا يجندون الشبان كل يوم : يومان للوداع ثم السفر الجبهـة . كانت الأيام عصيبة . وكان « جوديريان » (١) يراقب موسكو بنظارته المكبرة ، ولم يكن يرى فى طريقه الا أجسام هؤلاء الشبان السيبيريين كانت فرص عودتهم الى قراهم شبه معدومة ، ومع ذلك كان لهؤلاء الشبان حياتهم وحبهم وخطيباتهم . وكان هناك عدد كبير من الشابات اللاتى رضين أن يصبحن أرامل بعد أن أصبحن نساء من أحببن ليوم واحد .

اشتركت فى هذه الزيجات الفظيعة التى كانت ليلة الزفاف فيها الليلة الأخيرة كذلك ، فقد كنت فى سن الثامنة صبيا يجيد الرقص ولطيفا أيضا على ما يبدو . كانوا يسوقوننى من عرس الى آخر حيث كنت أؤدى رقصات شعبية روسية صاخبة لقاء قطعة خبز أو حبة بطاطس .

---

(١) جوديريان : ماريشال نازى ، واضع نظرية الهجوم الخاطف بالدبابات — المترجم .

وقد وصفت هذه التجربة فى قصيدتى « الزواج » . وحتى الآن ، عندما أفكر فى الحرب ، اتذكر هذه القصيدة أولا . واثر هذه الذكرى على أقوى من أجمل خطبة عن ضرورة الكفاح من أجل السلام .

واعتقد أن كلمة السلام ليس لها معنى ملموس الا للذين عرفوا الحرب ولذا فاذا كان من الممكن أن يكون للحرب فضل على فهو انها علمتنى بالذات معنى كلمة السلام .

وهناك شيء آخر تعلمته منها وهو معنى الوطن ، فقد أدركت أثناء الحرب أن الوطن ليس تعبيرا جغرافيا أو ادبيا ولكنه صورة لرجال ينبضون بالحياة .

انى أكره التعصب القومى . والعالم مقسم بالنسبة لى الى امتين فقط : أمة الناس الطيبين وامة الأشرار . وأنا مواطن فى الأمة الدولية التى تضم الطيبين .

ولكن حب الانسانية يمر من طريق حب الوطن .

هل يمكن أن يقال ان روسـيا انتصرت بسبب تعلق أبنائها بالوطن فقط ؟ . لا . . لا أعتقد انها انتصرت لهذا السبب فحسب .

سبق أن قلت : ان الشعب الروسى كان يتهدده ، قبل الحرب ، خطر الازدواج فى حيـاته ، ولكنه لم يفقد فى قرارة نفسه الايمان بمثل الثورة ، وقد هب للدفاع لا عن وطنه فقط ، بل وعن ثورته على الأخص بالرغم من كابوس معسكرات ستالين .

ليس من قبيل الصدف أن الشاعر « ميخائيل كولتشيكى » الذى مات فى الجبهة وهو فى العشرين من عمره كتب يتوقع نشـوب الحرب :

في الضباب الكثيف
تتحرك فرق سرية جديدة
وتدنو الشيوعية مرة أخرى
كما كانت عام ١٩١٧

قد يكون من العسير على المرء أن يعترف بذلك ، ولكن حياة الشعب الروسي أثناء الحرب كانت أيسر ، من الناحية المعنوية ، لأنها كانت أكثر اخلاصا ، وذلك أحد الأسباب الرئيسية لانتصارنا.

كان الكل ، كبيرا وصغيرا ، يكرس كل الجهود للنصر : الجندي والعامل والفلاح والمثقف . وقد حاولت أن أعمل مثلهم فاشتركت في الحصاد وعملت في ورشة نجارة وجمعت النباتات الطبية للجرحى .

وبدأت أكتب أيضا ، نثرا في أول الأمر ، كان ذلك في فترة يصعب فيها الحصول على الورق . كانت كراسة التلميذ تساوي كيلو من الزبدة ، وكان الأطفال في المدارس يكتبون الاملاء بين سطور الجرائد المليئة بالبلاغات العسكرية .

وسرقت من عند جدي مجلدين من أعمال ماركس وانجلز وملأت كل المساحات غير المطبوعة من المجلدين ، وحاولت كتابة الرواية ، وسامحتني جدتي عندما اكتشفت ذلك وربتت ببساطة على راسي وقالت لي : « والآن ستظل طوال حياتك ماركسيا راسخ العقيدة » ويخيل لي أن جدتي لم تخطىء .

رائحة ((التايجا)) :

لم أكن قد كتبت قصائدى بعد ، ولكنى كنت أنقل بعناية الأغانى الشعبية بلا اى غرض ظاهر ، ولكن ببساطة بسبب خوف غير وأع من خطر ضياع كل هذه الثروة اللغوية الشعبية من ذاكرة الرجال . وقد اكتشفت الجمال المتعدد الجوانب للغة الروسية من خلال هذه الأغانى العامرة بالاستعارات المجازية والأمثال .

فقد ظلت اللغة الروسية نقية مثل « التايجا » (١) التى تحميها جبال الأورال .

واللغة أشبه بقطع الثلج ، فهى مغطاة دائما بالغبار فى المدن وبسناج (هباب) المصانع ولكنها تظل ناصعة فى الحقول والغابات وحدها .

كانت الأغانى التى جمعتها تفوح برائحة التايجا . وقد بدأت أكتب شعرا من النوع الفولكلورى دون أن الحظ ذلك . كنت أريد أن يكون لهذا الشعر رائحة التايجا .

---

(١) « التايجا » : سهول سيبيريا وهى من مناطق الأستبس ــ المترجم .

وكثيرا ما أسأل عن أستاذى فى الشعر : انه التايجا قبل أى شىء آخر .

كانت التايجا تعجبنى لأنها صارمة ومختالة معتدة فى قرارة نفسها . ان الذين يأتون اليها بالرغم منهم يجدونها كريهة ، أما الذين يقصدونها بقلوب متفتحة فيجدونها طيبة وحنونة فى حياء .

ويبدو لى أن الاعتداء على التايجا أو افقارها بكسر أى فرع صغير بلا داع سبة ، وبالرغم من انى لست نباتيا فانى أعتبر القضاء على الكثير من الحيوانات والطيور التى لم تسبب أى أذى للانسان ضربا من الوحشية .

وأذكر أن أعمامي حضروا الى منزلنا فى التايجا فى احدى ليالى الشتاء وشربوا طوال الليل فى صخب وغنوا بأصواتهم المبحوحة أغنيات طويلة .. طويلة مثل الأنهار الروسية ، ثم أطفأوا الأنوار وسقطوا من التعب .

وتسللت وأنا بالسروال ، منتعلا الخف ، الى المدخل لكى اشرب ماء فتعثرت فجأة فى شىء يصدر صوتا مكتوما غريبا .

وتحسست فى الظلام بحثا عن أعواد الثقاب ورأيت على ضوئها المتراقص وعلين مكدسين أحدهما على الآخر وقد جمدهما برد سيبيريا ، كانت درجة الحرارة فى الخارج ٤٠ تحت الصفر وكانت فى عيونهم الواسعة نظرة انسانية متوسلة كما لو كانا يطلبان منى شيئا .

وركعت على ركبتي ورحت ادلكهما ونفخت عليهما دون جدوى ولكني لاحظت فجأة وأنا انظر لأحدهما أثرا صغيرا لدم على جبهته الطفلية فانطلقت أبكى بدموع ساخنة وأنا اضم الوعلين الميتين الى صدرى .

واستيقظ أعمامى ونقلونى بالقوة الى سريرى وقد تملكتهم الدهشة بسبب الاضطراب الذى أصابنى . وكان يبدو لهم من السخف أن يبكى صبى صغير لموت وعلين فى الوقت الذى كان يراق فيه دم البشر مدارا فى أنحاء العالم .

واعترف أنا الذى بكيت من أجل حيوانين ، انى كنت أسعد عندما أقرأ فى بلاغات جيشنا عدد الألمان الذين يقتلون كل يوم ، لأنى لم أكن أتصور الألمان بشرا ، كانوا شيئا آخر : كانوا أعداءنا .

الانسان والعدو :

وفى عام ١٩٤٤ عدت مع أمى الى موسكو ، وهناك أتيحت لى أول فرصة فى حياتى لرؤية هؤلاء الأعداء . فقد مر ، ان لم تخنى الذاكرة ، ٢٥ الف أسير المانى فى طابور واحد عبر شوارع العاصمة .

كانت كل الأرصفة سوداء من البشر الذين يحاصرهم جنود الجيش ورجال الحرس الوطنى ، كان كل الجمهور من النساء ،

نسـاء روسيات ، شوهت أيديهن الأعمـال الشـاقة ، ولم يعرف الأحمر طريقه الى شفاههن ، وناءت أكتافهن الهزيلة بالحمل الأكبر فى الحرب .

ولا شـك أن الألمـان كانوا قـد انتزعوا من كل منهن أباها او زوجها أو أخاها أو ابنها .

وكانت النسوة ينظرن بحقد فى الاتجـاه الذى سيجىء منه طابور الأسرى ، ثم ظهر الطابور وعلى رأسه جاء الجنرالات وقد تصلبت أشداقهم وزموا شفاههم فى امتعاض وازدراء يريدون بذلك أن يؤكدوا تفوقهم الارسـتقراطى على الدهمـاء الذين انزلوا بهم الهزيمة .

وعندما مروا بالنساء الروسيات تقلصت قبضاتهن العمالية من الغضب .

وصاح شخص فى وسط الطابور :

« الأوغاد ! رائحة الكولونيا تفوح منهم ! » .

واضـطر الجنود ورجال الحرس الوطنى أن يضـغطوا بكل أجسامهم ليحولوا دون تدافع هؤلاء النسوة وتخطى الحواجز .

وفجأت حدث أمر وسط الجمهور .

فقد ظهر له جنود ألمان هزال ، قذرين ، لحاهم غير محلوقة ورؤوسهم ملفوفة بأربطة ملطخة بالدماء ، يعتمد بعضهم على العكاز والبعض الآخر يعتمد على كتف زميله ، وكانت رؤوسهم منكسة .

وعندئذ ساد الشارع صمت رهيب ولم يعد يسمع الا الحفيف البطىء للأحذية والعكازات .

ورايت سيدة بدينة ، فى أقدامها أحذية روسية ضخمة ، تضع يدها على كتف أحد رجال الحرس الوطنى :

ــ دعنى أمر .

كان فى صوتها شىء جعل الرجل يفسح لها الطريق ، كما لو كانت قد صدرت اليه الأوامر واقتربت المرأة من طابور الأسرى واخرجت من سترتها قطعة من الخبز الأسمر الملفوف بعناية فى منديل وقدمتها الى أسير منهك لا تكاد تحمله قدماه .

وفجأة حذت نساء اخريات حذوها ورحن يلقين بالخبز والسجائر الى الجنود الألمان المهزومين .

لم يعودوا أعداء بل أصبحوا بشرا .

تربية الشارع :

وفى عام ١٩٤٤ ، فى نهاية الحرب كنت أعيش وحدى فى موسكو فى شارع « البورجوازية الرابعة » فى شقة خالية .

كان أبى بعيدا فى مكان ما بآسيا فى كازاخستان ، وكان قد تزوج من جديد وانجب طفلين واصبحت خطاباته نادرة .

أما أمى فقد تحولت الى مغنية بعد أن تركت مهنتها كجيولوجية وكانت تقوم بجولات فى الجبهة . وتولى الشارع وحده تربيتى ،

فتعلمت الشتائم والتدخين والبصق بمهارة من خلال الأسنان والاحتفاظ دائما بقبضتي فى حالة تأهب • وما زالت هذه العادة تلازمني وستلازمني مدى الحياة .

علمني الشارع ألا أخاف أى شيء ولا أهاب أى انسان ، وأفهمني أن أهم ما فى الحياة هو التغلب على الخوف من الأقوياء ، ومازلت مستوعبا هذا الدرس .

كان يحكم شارعنا صبى فى السادسة عشرة من عمره ذو منكبين عريضين بشكل غير مألوف بالنسبة لسنه ، وكان يسمى « أبو شعر أحمر » ويتجول على الأرصفة وعلى وجهه سيماء المالك الذى يتفقد عزبته . كان يتمايل فى مشيته على ساقيه القصيرتين مثل البحار فوق مركبه . وكانت عيناه القطيتان الخضراوان تتفحصان بازدراء كل من يصادفه فى طريقه .

وكان يتبعه دائما ، وعلى بعد خطوات منه ، مساعدان أو ثلاثة يحاكون حركاته ومستعدون للتدخل عند اللزوم .

كان فى استطاعة « أبو شعر أحمر » أن يستدعى أى صبى وأن يأمره ببساطة ولكن بكل ثقة :

ـ فلوسك ..

عندئذ يسارع المساعدون بالتدخل لتفتيش جيوب الشخص المعنى واذا لاقوا أى مقاومة راحوا يكلون للمتمرد الضربات بلا رحمة .

كان الكل يهاب « أبو شعر أحمر » وكان شأنى فى ذلك شأن الآخرين وكنت أعرف أنه يحتفظ فى جيوبه « ببونية » أو سكين ثقيلة من المعدن .

أول حقوق تأليف :

ولكنى قررت ان اتغلب على الخوف فبدأت بكتابة اشعار اهجو فيها « أبو شعر أحمر » وكان هذا الشعر أول قصائدى الغنائية . وانتشرت هذه الأشعار فى الشارع وكان الكل يهلل من الضحك عند قراءتها وكأنهم عوضوا عن الحقد المكظوم ضد « أبو شعر أحمر » .

وفى ذات صباح وأنا ذاهب الى المدرسة ، اصطدمت ب « أبو شعر أحمر » ومساعديه ، وسرعان ما تفرس فى بعينيه الخضراوين وصاح وهو يسخر منى :

ـ أنت يا شاعر ! يقال انك تكتب قصائد جميلة .

وقبل أن يمهلنى للرد عليه ، سلح يده بحركة سريعة «بالبونية» الأمريكية التى يحتفظ بها فى جيبه وانقض بها بكل قوته على رأسى فسقطت مضرجا بدمائى فاقد الوعى ! ولأول مرة فى حياتى حصلت على حقوق المؤلف ! .

لازمت المنزل عدة أيام ، وعندما خرجت ورأسى ملفوف بالشاش قابلت « أبو شعر أحمر » مرة أخرى ، وحاولت أن أتغلب على خوفى لمدة لحظات ولكن الغريزة كانت أقوى منى فرحت أعدو بأسرع ما يمكن باحثا عن ملاذ . وارتميت على سرير فى المنزل واسترسلت

فى البكاء وكدت أختنق من شعورى بالعجز والخجل من الخوف الذى تملكنى ، ورحت أضرب الوسائد وأعض فيها مقسما على أن أنتقم من « أبو شعر أحمر » .

وبدأت أتهيأ لهذه المعركة وعكفت على مزاولة الألعاب الرياضية فقضيت أيامى فى التدريب على المتوازيين ورفع الأثقال . وكنت أراقب كل صباح نمو عضلات ذراعى وكلى أمل . وللأسف كانت عضلاتى تنمو ببطء شديد جدا .

وعندئذ تذكرت اننى قرأت من مدة طويلة عن وسيلة سحرية للمصارعة عند اليابانيين تسمح بتفوق الضعفاء على الأقوياء . ورحت أنقب عن كتاب عند الجيوتسيو وحصلت عليه أخيرا فى مقابل كل مقرراتى من الأغذية لمدة ١٠ أيام .

الدفاع عن الشعر :

واختفيت تماما لمدة ثلاثة أسابيع وأنفقت كل وقتى فى المنزل مع بعض الصبية من سنى ، فى تعلم دروس الكتاب ثم خرجت للشارع .

كان « أبو شعر أحمر » يلعب الكوتشينة مع أثنين من مساعديه على النجيل فى الحوش ، وكان اللعب يستغرقه تماما حتى انه لم يرنى وأنا مقبل عليه .

واخذ الخوف ينهشنى وأنا أتقدم نحوه ، وراح صوت داخلى ينصحنى بالحاح على النكوص على عقبى والفرار .

وعندما وصلت بالقرب من اللاعبين بعثرت أوراقهم بضربة من قدمى وتفحصـــنى « أبو شعر أحمر » وهو مشـــدوه وقام ببطء وسألنى للوحا :

ـ أيريد أن أريك ؟!

وامتدت يده كالعادة الى جيبه ليتسلح ولكنى عرفت هذه المرة كيف ارد بحركة سريعة مفاجئة وأسقطت « أبو شعر أحمر » على الأرض فأطلق صرخة ألم ، ولم يعد يفهم شيئا فقام واندفع نحوى كالثور الهائج .

كل هذا كان متوقعا فى الكتاب ، وسرعان ما اضطر « أبو شعر أحمر » الى ترك البونية الأمريكية تفلت من أصابعه التى أصبحت عاجزة بفضل حركاتى المدروسة ، ووجد نفسه جاثيا على ركبتيه أمامى . وجاء الدور عليه ونزلت دموع العجز من عينيه .

لم يعد منذ ذلك اليوم ملكا على الشارع .

ومنذ هـذا اليوم تعلمت انه لا يجوز أن أخشى الأقوياء وانه يجب ببساطة أن أصبح أقوى منهم ، أن أبحث عن الوسيلة المناسبة لرد كل نوع من الأقوياء ، تلك الوسيلة التى تتلاءم مع طبيعتهم ، اى الجيوتسيو الخاص بمجالهم .

ومنذ تجربتى مع « أبو شعر أحمر » أدركت ايضا انه لا يكفى لكى يصبح المرء شاعرا أن يجيد كتابة القصائد بل عليه ايضا أن يكون قادرا على الدفاع عنها .

يوم النصر :

وعادت أمي من الجبهة وقد أصابها الهزال بشكل غريب ، واصبح شعرها الأشقر بنيا . اعتقدت فى أول الأمر انها صبغته ولكن عندما سألتها أجابتنى بابتسامة حزينة وخلعت الباروكة ، كان رأسها الذى خلا من الشعر تقريبا يشبه رأس صبى .

أصيبت والدتى بالتيفوس فحلقوا لها رأسها « زيرو » فى المستشفى ولكنها لم تفقد شعرها فقط فى الميدان .

كانت تغنى كل يوم عدة مرات ، تارة على سيارات النقل وتارة على الدبابات أمام الجنود المسافرين على الفور ليموتوا فى المعركة . كانت تغنى تحت المطر المنهمر والثلج المتساقط ولا تجد الدفء الا فى جرعة من زجاجة فودكا تقدمها لها من حين لآخر يد جندى . كانت تعتبر هؤلاء المستمعين مدهشين ومؤثرين ، غير أن صوتها الجميل القوى أخذ يضعف . لقد استطاعت ان تتحمل كل شىء ولكن صوتها خانها .

ومع ذلك فقد وجدت عملا عندما عادت ولكنها ابت أن تقول لى أين وجدت هذا العمل .

وسألنى الصبية فى انفصل ذات يوم :

ــ أامك مغنية ؟

فأجبت ؛أنا فخور :

ـ نعم ، مغنية .

ـ وأين تقدم أغانيها ؟

ـ فى أحد المسارح .

وانفجروا كلهم ضاحكين .

ـ مسرح ؟ ! اى مسرح ؟ انها تغنى فى الاستراحة فى قاعة سينما « فوروم » .

وقد ذهبت الى « الفوروم » فى يوم النصر .

كان يوما مشهودا . الصواريخ تنطلق الواحد اثر الآخر نحو السماء ومشوهو الحرب الذين كانوا يبيعون السجائر عادة راحوا يوزعونها مجانا فى هذا اليوم . ورأيت جنرالا يشترى كل المثلجات من عربة متجولة ويدعو الصبية المارين فى الطريق لتناولها . وكان الرجال يتعانقون ويبكون ويضحكون معتقدين أنهم انتهوا من أسوأ المحن وأنهم يبدؤون أخيرا مرحلة جديدة من الحياة السعيدة .

كانت سينما فوروم تغص بالجنود والنساء والجو المشبع برائحة العطور الرخيصة ، والبيرة وزجاجات الفودكا تنتقل من يد ليد ، والكل يشرب من عنق الزجاجة مباشرة ، والقبلات الحارة تحل محل « الزاكوسكيس » (١) والضباط يغمضون أعينهم أمام الفودكا والقبلات . كان كل شيء مسموح به فى هذا اليوم .

وفجأة تعثرت ..

---

(١) فاتحات الشهية ـ المترجم .

ظهرت على المنصة سيدة ترتدى فستانا مطرزا بالترتر وحذاء مذهبا . وبدأت تغنى بمصاحبة أوركسترا صغير . كان صوتها نصف مكسور بحيث يصعب تبين جماله الغابر .

كانت أمى ، وما كان أحد يستمع اليها .. كان النساء والجنود يفضلون الشرب وتبادل قبلات النصر .. يا الهى .. لقد كان هذا يوم النصر الذى ضحى من أجله الشعب الروسى بعشرين مليون من أبنائه ، وضحت أمى بصوتها .

وتركت أمى بعد ذلك بقليل خشبة المسرح لتصبح مديرة لقاعة موسيقى صغيرة .. كان عملها غير مجز ، يجلب لها المتاعب الكثيرة والمال القليل .. كان يتعين علينا أن نعيش بـ ٧٠٠ روبل نحن الثلاثة اذ انضمت الى عائلتنا أثناء الحرب أخت صغيرة تدعى الينا .

كانت أمى تعانى الكثير منى .. كان تعطشى للحياة يدفعنى نحو مغامرات لايمكن تصورها .. كنت صعب المراس .. اخترت أصدقائى فى فترة من الفترات من بين اللصوص المحترفين ، وارتبطت فى فترة أخرى بتجار الكتب فى السوق السوداء ، وفى كل مرة كان تدخل أمى كالعناية الالهية ينقذنى فى الوقت المناسب من المأزق الذى وقعت فيه .

كانت أمى تكرر لى النصيحة التى قدمها لينين لكل الروس « التعلم ، التعلم ، ثم التعلم أيضا » .

لم أكن مجتهدا فى دراستى .. كان يعوزنى الاستعداد فى بعض المواد مثل الطبيعة ، وما زلت حتى اليوم عاجزا عن ادراك ما هى الكهرباء وما مصدرها ، وكانت درجاتى فى اللغة الروسية سيئة أيضا فى الشفوى فبالرغم من أن كتابتى كانت جيدة وخالية من الاخطاء الا أنى كنت أعتبر دراسة قواعد اللغة الميتة ، ضربا من الجنون .

ورأيت في المدرسة جنينيات تكوين أبناء جيلي في المستقبل . فخلف الادراج الصغيرة كان يقبع منذ ذلك الحين الباحثون عن الحقيقة الصغار والأبطال الصغار ، والمتبجحون الصغار والعقائديون الصغار .

كنت لا أحب المتبجحين الذين يهزؤون من كل شيء وفي كل مناسبة ولكنني لم أكن أحب أيضا « الصمامون » الذين يلتهمون كل مافي كتب الدراسة دون أن يتحركوا من مكانهم .

كان نظري مثبتا على الشباك وانا جالس خلف درجي تحت صورة ستالين أحلم بالهروب الى مدرسة أخرى ، مدرسة المدينة الكبيرة التي تفوح برائحة الثلج والسجائر ووقود السيارات وفطائر « البيروجكي » الساخنة التي تباع على قارعة الطريق .

وبمجرد احساسي اني وحدي في البيت ، بعيدا عن رقابة امي اترك كراريسي لأكتب قصائد تعكس تصوراتي لحياة أخرى . كنت لا أتوقف عن الكتابة الا عندما تتجمد أصابعي ، وفي بعض الأيام توصلت الى كتابة ١٠ أو١٢ قصيدة !

انا المؤلف :

وغزوت كل حجرات التحرير في المجلات بانتاجي . كانت صيغة الرفض واحدة . واني لأتصور الآن دهشة محرر جريدة « الرواد » « كشافة الأطفال من سن ٨ الى ١٥ سنة » وهو يقرأ قصيدتي :

« طريقى السائل لا نهاية له
« واندفع فأضيف ظلال الليل
« لقد أحببتنى يا رفيقات الطريق
« ولكنكن نسيتنى فى اليوم التالى ..

وذات يوم ، بعد أن أوشكت أن أفقد الأمل ، جاءنى رد من دار « الحرس الفتى » للنشر ، يطلب منى الحضور لمناقشـــة انتاجى . كان الخطاب يحمل توقيع الشاعر اندريه دورستال ، وهو شاب نحيل يضع عصابة سوداء على عينه اليمنى . كان يبدو كالقرصان وبدت عليه الدهشة عندما رآنى داخلا :

ـ اتبحث عن أحد هنا ياصغيرى ؟
فقـــدمت له الخطـاب .
ـ آه ، فهمت ، والدك مريض لم يتمكن من الحضور بنفسه.
فأجبت بعصبية وانا اضغط كالمحموم على حقيبتى المدرسية:
ـ ليس والدى ولكنى انا مؤلف القصائد .

وظل دورستال ينظر الى برهة وهو مشدوه ثم اطلق ضحكة عريضة :

ـ لقد غررت بى حقا . كنت اظن انى قد تواعدت مع سيد ذى شعر رمادى اقتحم النيران وعرك الحياة . فى شعرك كثير من قصص الحرب والألم والغراميات الفاجعة .

واتجهت نحوى أنظار كل الذين يوجدون فى الغرفة ، وعلت الابتسامةوجوههم فاعتقدت أنهميسخرون منى .وأحسدورستال باضطرابى وبدأت الدموع تملأ عينى فربت بيـــــده على كتفى وأجلسنى وكلمنى عن كراسة اشعارى .

لقد أصبحنا أصدقاء فيما بعد . لم يكن دورستال شـــاعرا كبيرا ولـكنه كان يعشـق الشـعر فحـول على الآمال التى لم يتمكن هو من تحقيقها .

وقد ساعدنى فى مهنتى ، كشاعر ، شعراء متواضعون فى أغلب الأحوال فهم دائما أرق وأكثر اهتماما بالمبتدئين من كبار الشعراء . غير أن دورستال لم يتمكن من نشر أعمالى الأولى .

كان « مارتن ايدن » (١) هو كتابى المفضل واصبحت صفحاته الأولى مصدر الهام وسعادة بالنسبة لى . اما الآن فانى أفضـــل صفحاته الأخيرة .

مصـــير الشـــاعر :

لم تكن والدتى ترتضى لى أن أصبح شاعرا . لم يمـكن ذلك بسبب عـدم تذوقها للشعر ، ولكنها كانت تعتقـد بكل بساطة أن الشاعر شخص غير مستقر يتعذب ويعانى دائما من حياة الترحال . كانت تعرف ان نهاية أغلب الشعراء الروس مأساة ، فقـد مات بوشكين وليرمنتوف فى المبـارزة . وأحرق الكسندر بلوك حياته شيئا فشيئا فى دخان الليل فانتحر فى الواقع ، وشنق اسـنين نفسـه . وأطلق ماياكوفسكى الرصاص على نفســـه . كانت امى

---

(١) قصة عامل يصبح أديبا ، للكاتب الأمريكى جاك لندن ــ المترجم .

تعرف أسماء عدد كبير من الشعراء من جيلها ماتوا فى معسكرات ستالين ولكنها لم تحدثنى عنهم بالطبع .. كانت ترتجف لمجرد فكرة اختيارى هذا الطريق . كانت تمزق كراريسى وأشعارى قطعا صغيرة وتتوسل الى دائما أن أهتم بشىء « جدى » .

كانت « الجدية » بالنسبة لى هى الشعر بالذات ، فواصلت الكتابة بعناد طفل مجنون . لم يكن رأسى يحتوى بالطبع على أفكار ضخمة ، فقد أنفقت عدة سنوات مثلا فى البحث عن قواف جديدة .

كانت القوافى المعاصرة تبدو لى محدودة ، وكان ماياكوفسكى يقول مازحا فى العشرينات : « اذا بحثنا جيدا فسنجد فى مكان ما فى فنزويلا حوالى ٢٠ قافية لم يكتشفها أحد حتى الآن » .

كنت لا أصدق ماياكوفسكى رغم كل اعجابى به . ألم يؤكد هو نفسه أنه يجب علينا الا نثق فى اية سلطات أدبية ، أيا كانت ؟

رفضت اختيار الطريق السهل الذى يفضله الشعراء الغربيون الذين أعلنوا أن القوافى أصبحت تخلفا ، وراحوا يكتبون خليطا من النثر والشعر ، وأرى انهم يقضون على احدى مميزات الشعر ألا وهى الموسيقى .

سجلت فى كراسة كبيرة خاصة حوالى ١٠ آلاف قافية جديدة ولكنها اختفت بكل أسف .. غير أن هذه الأبحاث أفادتنى على أى حال فقد احصى النقاد قوافى خاصة بى : قواف « افتوشنكية » وهذا كرم منهم لأنى لم أخترع شيئا . فقد استغللت ببساطة بعض مبادىء القوافى فى الشعر الشعبى . غير انه من العسير شرح هذا العمل للقارئ الغربى بسبب العقبات التى تثيرها الترجمة . على أنى كنت أشعر دائما أن كتابتى تتقدم فى نفس الوقت الذى كنت أحصل فيه فى المدرسة على درجات سيئة فأسوأ .

الشيوعية وانكار الذات :

كانت لدى أمى حجة أساسية ضد مستقبلى كشاعر :

ــ لن يجلب لك الشعر أبدا الحياة الهادئة أو الثروة ! .

غير أنى أكره الحياة الهادئة بنفس القدر الذى أكره به النقود .

ويقال ان أحد العظماء قال : ان النقود هى أداة تحرير الانسان ولكنى أرى أن النقود كانت وستظل دائما الأداة الملعونة للعبودية .

اذا افتقد الانسان النقود فتلك هى العبودية للانسان الذى يحاول الحصول عليها مهما كان الثمن حتى يعيش .

واذا حصل عليها وقع فى نوع آخر من العبودية وهو سيطرة فكرة المحافظة عليها أو محاولة الاستزادة منها . وكم من رجل أضاع خير قواه وطاقته من أجل هذا الهدف .

لقد عرفت لعنة النقود فى عام ١٩٤٧ أثناء التعديل النقدى الشهير .

فقد لجأ ستالين الى أسلوب جذرى لاصلاح النظام المالى للاتحاد السوفييتى ، وتصفية التضخم الذى حدث اثر الحرب بضربة واحدة ، ذلك باصدار نقد جديد .

ولم يسمح باستبدال النقود الجديدة بأكملها الا الذين أودعوا هذه النقود فى صناديق الادخار الحكومية وهؤلاء لم يكونوا الا قلة

ضئيلة ، أما الآخرون فلم يسمح لهم الا باستبدال مبلغ محدد تافه ·
واصبحت بقية نقودهم المدخرة عديمة القيمة بين ليلة وضحاها .

وتدفق الناس على المحلات بمجرد انتشار شائعة قرب الاصلاح النقدى فى موسكو ، فراحوا يشترون ويشترون ويشترون أى شىء .

ورأيت ربة بيت مبهورة الانفاس يتصبب منها العرق وهى تحمل على كاهلها تمثالا نصفيا لفينوس ·

وشاهدت رجلا وقد انتابه الجنون وهو يحمل أربعة مقاعد خشبية للمراحيض لأنها الشىء الوحيد الذى وجده فى المحل .

ورأيت يوم الاصلاح عجوزا يجرى فى الشوارع ويلقى على الأسفلت بالنقود التى فقدت قيمتها وهو يدوسها بشكل جنونى ويطلق صرخات هستيرية .

كنت ألقى نظرات الازدراء الجديرة بالرجل الثورى على هؤلاء القوم وأنا اضع يدى فى جيوب معطفى المرتق .

أما أنا فكنت أحب مشاهدة الأفلام التى تتناول الثورة ، وكانت الدموع تنهمر من عينى وانا ارى الجنود والعمال يمرون على الشاشة وقد علقوا شارات على أكتافهم ، وأمسكوا بالبنادق فى أيديهم · كنت أريد أن أكون مثلهم : فخورا ومنكرا للذات · كان يبدو لى أنه من الغريب وغير المفهوم أن يحب النقود الى هذه الدرجة ، الرجال الذين يحتفظون فى جيوبهم ببطاقة الحزب الشيوعى . فكلمة الشيوعية وكلمة انكار الذات ، فى ذهنى ، مترادفان ·

ومع ذلك فاننى اذكر والد أحد زملائى فى المدرسة ، وهو موظف كبير فى مؤسسة تجارية ، كان يلقى على بصوت فخم كلمات لينين :

« سنستخدم الذهب فى المجتمع الشيوعى فى بناء دورات المياه » . كنت اتأثر بهذه الكلمات وأعجب بها .

وفى يوم الاصلاح النقدى وجد أبو زميلى ملقى بجوار مرتبته المفككة والمحشوة بالنقود التى فقدت قيمتها وقد اخترقت رأسه رصاصة .

وهكذا ادركت شيئا فشيئا أن بعض الذين يدعون أنهم شيوعيون ويلوكون فى افواههم كلمات لينين وستالين ليسوا فى الواقع شيوعيين على الاطلاق .

فالحصول على بطاقة عضوية الحزب والتشدق بالشيوعية ، لا يمت بصلة الى معتقداتهم الفكرية ، فهى ليست الا شكلا لوجودهم .

وقد تكلمت عن هؤلاء الأشخاص بعد ذلك فى قصيدة بعنوان : « أعتبرونى شيوعيا »

هؤلاء الذين يفخرون

بكل حماس

بسلطاتنا

ويكذبون فى الاجتماعات

انهم لا يحبون سلطة السوفييت

انهم يحبون

السلطة فقط

بالطبع لم يكن فى مقدورى أن أصوغ وأن أفهم ذلك جيدا وأنا لا أزال طفلا ولكنى كنت أحس ذلك بشكل غريزى .

كنت ، ولا زلت أعتز بالمثل الرومانتيكية لهؤلاء العمال والفلاحين الذين شنوا هجومهم على قصر الشتاء فى عام ١٩١٧ . ولذلك سأعتبر دائما هؤلاء النهمين الذين لا يبحثون الا عن مصالحهم ، خونة للثورة .

ويبدو لى للأسف ، أن عددا كبيرا من الخبراء الغربيين فى الشئون السوفييتية يقعون فى خطأ الحكم على بلادنا ومثلها الأعلى الثورى ، لا من خلال الرجال المخلصين لمعتقداتهم ، ولكن من خلال هؤلاء الخونة .

ولكنهم يرتكبون خطأ آخر غير الأول ، فهم يعتقدون دائما أن الشيوعية فرضت على الشعب الروسى بشكل مفتعل ولذا لا يلاحظون ان هذه الفكرة اصبحت من دم ولحم الشعب الروسى .

وكان لينين يقول : « لقد أنجبت روسيا ماركسيتها فى الآلام »

وبالطبع كان تفكيره يتجه نحو الماضى القيصرى ، ولكن روسيا لم تتألم من اجل الماركسية فى فترة القيصرية فقط . لقد ظلت تدفع ثمن الآلام وأخطاء فترة بناء المجتمع الاشتراكى .

البجاحة والعقائدية ... أكرههما :

وشعبى عزيز على لانى روسى ولأنى ثورى .. أعتز به لأنه لم يترد فى الصفاقة ولم يفقد الايمان بالنقد الأصيل للفكر الثورى بالرغم من الشوائب التى علقت به .

أكره المتبجحين الذين ينظرون للتاريخ من اعلى تطلعاتهم والذين لا يحترمون العمل البطولى لشعبى والذين يحاولون أن يصوروه على

أنه قطيع من الخراف، لا يقوى على التمييز بين الخير والشر .. فهؤلاء القوم لا يمكنهم ان يقوموا بأى عمل بناء .

ولكنى أكره العقائديين بنفس القوة .. انهم يمثلون من وجهة نظرى أسوأ أشكال المراجعة . ويعيش بعض العقائديين بكل اخلاص داخـل أسـوار تعصبهم ولكن أغلبهم يتشدقون بالكلمات الجميلة لا لشيء سوى اخفاء مصالحهم الفردية المريبة ، وقد تأكد لى ذلك منذ الطفولة .

لما كنت أعتبر أن الشيوعية أصبحت روح الشعب الروسى نفسه ، كما سبق أن قلت ، فانى مقتنع ان المتبجحين والعقائديين لا يخونون الثورة فقط بل يخونون شعبهم أيضا .

لعل الشعب الروسى عانى الآلام خلال القرون من تاريخه أكثر من أى شعب آخر . ويرى البعض أن هذا الماضى المثقل ، كان لابد وأن يثبط من روحه ويقضى على ثورته وعلى الايمـان بأى شيء . ولكنى أعتقد أن المصائب التى تلم بأمة تؤدى الى نتائج عكسية . فالبلدان التى حابتها الجغرافيا أو التاريخ والتى تبدو اليوم ظاهريا انها أغنى البلاد تعانى بالذات من النقص فى حياتها الروحية وشك المواطنين فى القيم الأخلاقية .

واعتقد أن هـذه الشعوب غير سـعيدة مهما كانت المظـاهر الخارجية لثرائها . ويبدو لى أن كلمة الانجيل « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » . تفسر جوهر قلق هذه الشعوب .

بالمثل يحيا الانسان :

قال الفلاسفة السابقون « الانسان حيوان يحلم » .

وبعض معاصرينا يثبتون فى حياتهم ، صحة الجزء الأول من هذه الجملة فقط .

ولكن حتى هؤلاء فى حاجة مع ذلك الى أن يحلموا بشىء ما ولو بزوالنا ونحن ننظر اليهم عن كثب . أنهم عاجزون حتى عن الحلم بمثل اعلى .

وحياة الرجل الذى لا مثل له حياة يائسة ، وهو يستطيع أن يخفى بؤسه عن عينيه وعن اعين الناس ولكنه لا يؤكد بذلك الا مدى الفراغ الذى يعيش فيه .

واذا كان الانسان المرفه يعانى فى أغلب الأحوال من افتقاده المثل ، فان الذى يعانى من الآلام فى حياته لا يمكنه أن يستغنى عن هذه المثل .

فالخبز لا يحل محل المثل بالنسبة لمن لا مثل له ، ولكن المثـــل تستطيع أن تحل محل الخبز .

تلك فى نظرى طبيعة الانســـان وانى لمؤمن بأن الآلام الكبيرة وحدها هى التى تخلق المثل العليا الكبيرة .

لماذا أخطأ ماركس عندما تنبأ بالثورة فى البلدان الراسمالية المتقدمة لا فى البلدان المتخلفة مثل روسيا ؟

كيف أصبحت روسيا فجأة الأولى في طريق الاشتراكية بعد ان كانت الأخيرة في سباق التصنيع ؟

لأنها أفسحت الطريق البلدان الأخرى في مجال التنافس الصناعي ، ولكنها لم تفسح لها الطريق في كمية الشقاء الشعبي التي سكبت وتسكب كل يوم .

وستردون علي قائلين : ولكن الثورة حققت لكم الانتصارات وسببت للشعب الروسي في نفس الوقت آلاما جديدة وأسكبت الدموع مدرارا . وهذا صحيح .

لكن يجب الا ننسى بعض السمات الخاصة بالطابع الروسي . فهو متعود على الآلام وقادر على تحمل مالا يعتقد مواطنو البلدان الأخرى ان من الممكن تحمله .

لكن هناك شيء آخر ، فالأم تفضل الابن الذى عانت فى انجابه . والشعب الذى يجود بالدم والدموع ليحقق مثله الأعلى ، يعتز أيضا بهذه المثل .

مبادىء ليست أكذوبة :

ولكنهم يسألوننى فى الغرب :

ــ اذا كان هذا المثل الأعلى ، أى الشيوعية ، لم يكن سوى اكذوبة ؟

وأجيب على ذلك بانه اذا كان الحكم على المسيحية بمحاكم التفتيش والأدعياء والقساوسة الزيفين ليس من العدالة فى شيء ،

فمن المستحيل أيضا ان نخلط فكرة الشيوعية العظيمة باعمال بعض الوصوليين وأشباه قضاة محاكم التفتيش الذين أرادوا التسلط عليها .

كانت أمى تتساءل فى اشمئزاز فى كل مرة تصادف فيها كاذبا بيروقراطيا مغرورا أو وصوليا يستخدم بطاقة عضوية الحزب من أجل النجاح .

ـ هل هذا شيوعى ؟

والشيوعى بالنسبة لى ليس أى شخص . وصفاته لا تمت بأية صلة الى انتظامه فى دفع اشتراكاته فى الحزب .

وقد تشربت بهذه الأفكار منذ طفولتى على بساطتها التى تشبه بساطة حياة المواطن السوفييتى .

ومنذ هذا الوقت تعلمت كيف أقسو فى الحكم على هؤلاء الذين يتزاحمون ويتدافعون بالأيدى فى الحياة ويضحون بالآخرين بلا شفقة باسم « مصلحة الشعب » المزعومة .

اشعر بالخجل من أجل ستالين وليس من أجله وحده . كيف استطاع ان يتشكك الى هذا الحد فى هذا الشعب الذى يؤمن بالشيوعية والذى كان يثق كل الثقة به وبمن يحيطون به ؟

وانتهت الحرب ولكن كثيرا من المنتصرين بالأمس اضطروا ان يتحملوا خزى المراقبة البوليسية ويلاقوا القمع المباشر فى اغلب الأحوال .

لم يكن فى امكانى بالطبع تصور مدى ممارسة هذا الضغط ، ومع ذلك كنت أرى الكثير ، وكان سلوكى فى المدرسة ، الذى يغلب عليه طابع التمرد ، يعكس حالة القلق التى كنت أعانى منها .

شخصية ستالين :

التفاؤل المصطنع كان مفروضا في كل مكان . فعلى أغلفة الكتب تنتظرنا وجوه عمال كولخوزيين يبتسمون بشكل آلي . كل الروايات والقصص كانت تنتهي بخاتمة سعيدة ، وخصص المصورون كل لوحاتهم تقريبا للمآدب الحكومية وغيرها من الاحتفالات الرسمية . وفي قمة هذا الاتجاه جاء شريط سينمائي ليتوج التيار .. كانت الفقرة الأخيرة من هذا الفيلم مخصصة لحفل ضخم للكولخوزيين ، يغنون ويرقصون وخلفهم محطة توليد الكهرباء .

وأتيحت لي أخيرا فرصة الدردشة مع مخرج هذا الفيلم وهو رجل ذكي لا تنقصه الموهبة .

سألته بصراحة :

ـ كيف أمكنك أن تخرج شيئا كهذا ؟ لا شك أني كتبت قصائد من هذا الطراز غير أني لم أكن سوى صبي أما أنت فكنت رجلا جادا مكتملا ؟

فابتسم بحزن وقال :

ـ لقد كنت صادقا ، وهذا أفظع ما في الأمر . كنت أعتقد أن عملي هذا ضروري لبناء الشيوعية ، ثم أني كنت أؤمن بستالين ،

وكثيرا ما أفكر في هذا الحديث عندما تثار مشكلة عبادة ستالين ، لأنه يجب ألا نتسرع في الحكم على كل الذين ساهموا بشكل أو آخر في هذه العبادة . لا شك أنه كان يوجد بينهم عدد كبير من المنافقين والوصوليين الذين كانوا يضاربون على الأوضاع السياسية . أما بالنسبة للفنانين ، فمدح ستالين كان تعبيرا عن مأساتهم الشخصية أكثر منه انعكاسا لخستهم .

كيف انخدع كل هذا العدد من الرجال الأذكياء الموهوبين ؟

أجدني مضطرا أن أكرر أن ستالين كان يتمتع ، في رأيي ، بشخصية قوية جدا بل وباهرة .. كان قادرا على سحر كل من يتصل به . لقد استطاع أن يغرر بماكسيم جوركي وهنري باربوس(١) وحتى في عام ١٩٣٧ أي في أشد سنوات القمع والتنكيل ، استطاع أن يؤثر على رجل حنكته التجارب وغير ميال الى اسداء المدح والاطراء مثل ليون فيشتفانجر (٢) . بل أكثر من ذلك ، كان ستالين واعيا بالشعبية الهائلة التي كان يتمتع بها لينين ، وكان يدرك مدى حب الشعب السوفييتي لقائد ثورتنا ولذلك فقد عمل كل ما يمكن ليزور التاريخ وليوهم الناس بالصداقة العميقة التي تربطه بلينين ولكي يفرض على ضمائر السوفييت الربط الوثيق بين اسمه واسم لينين . وقد تمادى في هذا التزوير

---

(١) هنري باربوس Henri Barbuse روماني فرنسي شيوعي ألف عدة روايات عن الحرب العالمية الأولى أشهرها « النار » مات عام ١٩٣٥ — المترجم .

(٢) ليون فيشتفانجر Lion Feuchtwanger كاتب ألماني شهير لجأ الى أمريكا هربا من الارهاب الهتلري . ألف عدة روايات عن المؤرخ الروماني الشهير فلافيوس جوزيف — المترجم .

حتى أصبح من المحتمل جدا أن يكون هو نفسه قد آمن فى آخر الأمر بوجود هذه الروابط الخاصة التى تربطه بلينين والتى ليست الا أوهاما مخترعة .

وانى لا أشك فى أن ستالين كان معجبا بلينين .. فخطابه الجنائزى الذى القاه يوم الاحتفال بدفن لينين والذى يبدأ بـ :

« عندما تركنا الرفيق لينين ، أوصانا ... » يعبر عن صدق حقيقى وهو يقرأ كما لو كان شعرا منثورا .

لقد أراد ستالين أن يبدو حاملا لرسالة لينين لا أمام الناس فقط بل وأمام نفسه أيضا . ونجح فى أن يخدع نفسه كما خدع الآخرين حتى أصبح الاثنان متلازمين فى أذهاننا لدرجة أن باسترناك نفسه جمع بينهما فى احدى قصائده الشهيرة .

ومع ذلك كان ستالين على عكس لينين تماما ، ويمكن تلخيص فكرة مؤسس جمهورية السوفييتات بشعار « يجب أن تكون الشيوعية فى خدمة الناس » أما ستالين فقد آمن بعكس ذلك تماما « يجب أن يكون الناس فى خدمة الشيوعية » .

الستالينية هى النظرية التى تعتبر كل البشر مجرد تروس آلية فى مؤسسة صناعية ضخمة . وقد ترتبت على تطبيق هذه النظرية فى الحياة ، نتائج فظيعة .

الانسان والعمل :

جاء في دستور ستالين الشهير عام ١٩٣٥ نص بديع يقول : « العمل فى بلادنا مسألة شرف وجسارة وبطولة » .

أما فى الواقع فقد رفع العمل الى مرتبة أعلى من الآدميين ، لقد اصبح الها يجب أن يقدم له المواطنون القربان كل يوم .

كان على الفنانين ايضا أن يقدموا القرابين « للعمل » ، هذا الاله المجرد وأن ينزلوا بالحياة الروحية للأمة الى مستوى وصف مختلف أشكال « العمل » .

وهكذا أصبح الصلب البطل الرئيسى فى عديد من الروايات . وكرست روايات لتشييد بيت أن لنثر بذور القمح .

كان الآدميون لا يقومون الا بدور ثانوى فى هذه الأعمال ، ولم يكونوا على أى حال أحيـاء بل مجرد ملحقات تســاعد على ابراز « العمل » .

وســافر الشعراء من أقصى البلاد الى أقصـاها ليشـاهدوا المنشئات الجديدة وليعجبوا بالآلات الحـديثة . أما الرجال الذين يستخدمون هذه الآلات فلم يسترعوا انتباههم اطلاقا .

آه لو كانت الآلات تجيد القراءة ! . اذن لعرفت قدر قصائد هذه الفترة ! . غير أن هذه القصائد لم تكن تهم الآدميين . وعلى كل فلم يكن هذا يعنى دور النشر فى قليل أو كثير ، فعدد النسخ

من الكتاب لا يحدده البيع بل يتوقف فقط على المركز الرسمى للكتاب وعلى مدى نفوذه فى الأوساط العليا . لم يكن مستغربا اذن أن تنوء أرفف المكتبات تحت أكداس الكتب التى لا يقبل على شرائها أحد ، وبالطبع كان يبرز من آن لآخر ، من بين هذه القصائد « الصناعية » و « الكولخوزية » قصيدة غير متوقعة ، فقد اثارت القصائد البسيطة والمحركة للعواطف التي كتبها الشاعر الشاب فانشنكين عن حبه الأول ، اهتماما بالغا .

وتخاطف الناس الأبيات لفينوكوروف ، الشاعر الشاب . كانت أشعارا تلقائية غير مشذبة ولكنها تفيض بالحرارة المفتقدة فى اشعار الآخرين المنمقة .

لم يغير هذا من الحالة ، اذ فقد الشعر جماهيره ولزم الشعراء القدامى الصمت ، واذا كتب أحدهم من آن لآخر كان ذلك أسوأ من سكوته .

كانت هناك مآس أكبر من هذا .. كان الشعراء الروس المرموقون من أمثال زوبولفسكى وسيميلياكوف يرزحون فى معسكرات الاعتقال الستالينية . وقد أبعد أيضا الشاعر الشاب ماندل « كورجافين » .

ولا أدرى اذا كان اسم ماندل سيحتل مكانا بارزا فى تاريخ الشعر الروسى ولكننى واثق أن اسمه سيكتب بحروف من ذهب فى تاريخ الفكر السياسى السوفييتى فهو الشاعر الوحيد الذى كتب أشعارا ضد ستالين فى حياة ستالين نفسه وقد أنقذته هذه الشجاعة نوعا ما ، فقد اعتقدوا أنه مجنون وان لم يحل ذلك دون نفيه .

وحذا بعض الشعراء حذو باسترناك وآنا احمدوفا ، فكرسوا جهودهم للترجمة ، وأصبحت الندوات الشعرية نادرة لا تجتذب جمهورا كبيرا .

وهناك عدد كبير من الشعراء لا يعبؤون بنجاح أعمالهم لدى القراء وان كانوا قد وضعوا نصب أعينهم هدفا فنيا ، الا وهو الحصول على جائزة ستالين .

حضرت ذات مرة ، وبالمصادفة ، اجتماع اتحاد الكتاب الذى كان يناقش الترشيحات للجائزة ، وقد زعزعنى الطابع التجارى للمقاييس المعمول بها . كنت أشعر أن الكل قد نسى المسألة الأساسية فى الأدب وهى مدى فائدة هذه الاعمال .

وأذكر كيف انتفض تساردوفسكى من على كرسيه وهو يسمع المديح الذى يكال لشاعر يسعى بعناد الحصول على جائزة ستالين . فقد صاح قائلا :

ـ أؤكد لكم انى أستطيع أن أحضر أى ثور من قريتى ليكتب لكم قصائد أفضل من هذا المرشح ! .

الجائزة تعنى الكثير :

وقد استبعد هذا المرشح بالفعل ، ولكن ماذا تظنون كان رد فعل ضحية هذه الكلمات المدمرة التى نطق بها شاعر يعترف الجميع بأستاذيته فى الشعر ؟ هل تظنون أنه خجل أو انه بدأ يفقد الثقة فى نفسه ؟ لا ابدا . لقد أخذ يتجول فى الأروقة وهو يتمتم : « ان لم يكن فى هذا العام ، ففى العام القادم . ولكننى سأحصل على جائزة ستالين » ! .

وفى نفس الليلة قابلت فى أحد المطاعم شاعرا آخر استبعد هذا العام ، وكان يصرخ بملء فيه وهو ثمل :

ـ اعطوها لشاعر ميت ! ما فائدتها بالنسبة لشاعر ميت ! انا حى ! أنا محتاج لها !

كان محقا من وجهة نظره . فجائزة ستالين تعنى الكثير بالنسبة للانسان انها تعنى اعادة طبع كتبه فى التو وبكميات هائلة ، معناها مقالات التقريظ فى كل الجرائد ، وصورته فى كل الشوارع . وهى أيضا وسيلة للحصول على منصب رسمى وسيارة خاصة وشقة مريحة ومنزل ريفى فى أغلب الأحوال . هل هناك ما يدعو للعجب اذا كان هؤلاء القوم لا يعنيهم ان كانت كتبهم المتوجة تقرأ ام لا ؟ .

لا أقول ان كل الكتب التى حصلت على الجائزة فى هذه الفترة وضعت بحساب ولهذا الهدف . كان هناك مؤلفون امناء ، أما الشائع فهم الوصوليون .

ان يومنا لقريب :

بينما كان القوم فى اتحاد الكتب يحومون حول الأوسمة الذهبية والفضية كان الشاعر الرائع بوريس سلوتسكى يتجول فى شوارع موسكو بخطوات عسكرية . لقد نشرت له قصيدة واحدة ، وكان ذلك فى عام ١٩٤٠ . ومع ذلك فهو أهدأ وأكثر ثقة بنفسه من كل هؤلاء المتهوسين من المرشحين للجوائز والحاصلين عليها .

وبالرغم من أنه بلغ الخامسة والثلاثين فلم يقبل عضوا فى اتحاد الكتاب وكان يعيش بقدر الامكان من كتابة تعليقات قصيرة للاذاعة . لم تكن لديه شقة ، كان يعيش فى غرفة صغيرة على القهوة والأغذية المحفوظة الرخيصة أما مائدته فكانت عامرة بالقصائد المرة القاسية ، والبودليرية أحيانا ، والتى لم يعرضها على أى هيئة تحرير جريدة حتى لا يضيع وقته سدى .

كان ينشر بين الشعراء الملتفين دائما حوله ، ثقته بالمستقبل . وأذكر انى شكوت له مرة من استبعاد أفضل قصائدى فأشار لى بهدوء الى مائدته المثقلة بالمخطوطات واضاف قائلا :

ــ لقــد اخترقت الرصـاصات جســدى ، ولم أحارب فى الجبهة لتتراكم أشعارى على المائدة ولكنى واثق أن الأمور ستتغير . أن يومنا لقريب .. يجب أن تكون لدينا اشياء فى قلوبنا وعلى مائدتنا لهذا اليوم .

وقد تأثرت كثيرا بحديث سلوتسكى الهادىء ولم أعد أتعذب من أجل أشعارى التى لا تنشر ، وواصلت الكتابة وأنا أفكر فى المستقبل أكثر مما أفكر فى الماضى .

غير أن مزاجى لم يكن متلائما مع هذا الوضع .. كنت لا أستطيع أن أمنع نفسى من التدخل فى المناقشات الأدبية لأكشـف الادعاء واللهجة المزيفة للساعين للحصول على الجوائز . لم تكن لدى أى خبرة خطابية وكان كلامى صراخا من القلب أكثر منه خطبا . وقد اختنق صوتى مرة أثناء هذه المناقشة الحامية كما لو كان صوت ديك صغير فنزلت من المنصة وقد احمر وجهى خجلا ، وسـط ضحكات القاعة .

وفى مرة أخرى تناولت بالقدح شاعرا حصل مرتين على جائزة ستالين ، كان يغرق صـفحات « البرافدا » ببضـاعته الأدبية

الرخيصة فسحب منى رئيس الجلسة الكلمة بعنف وقال لى بجفاء :

ـ لقد تخطيت الوقت المسموح به .

كان رئيس الجلسة شاعرا مشهورا كنت اعرفه من صغرى ، عن طريق الصحافة ، وكان وجهه وشعره الأبيض الجميل مألوفا لدينا شأنه في ذلك شأن القادة السياسيين . وانتابنى ارتباك شديد وأنا أترك المنصة . كانت ساعتى تؤكد لى بشكل قاطع انى ما زالت لدى خمس دقائق للكلام . هل كذب الرئيس اذن ؟ كنت لا أستطيع أن أتصور ذلك . لا أعتقد انه قادر على ذلك . ولم أدر انه كان قد كذب بالفعل الا بعد ذلك بمدة طويلة .

أمقت معاداة السامية :

كونت صداقات كثيرة فى اتحاد الكتاب لأن أغلب أعضائه كانوا مخلصين ، ولكن لم أكن أجهل أن كثيرا من المراكز القيادية كانت فى أيدى الوصوليين المجردين من النبل . واليكم مثلا يصور تقاليدهم ..

كان رئيس فرع مسرحى حاصل على كل الجوائز المكتسبة يكتب « أعماله » عن طريق أدباء « مأجورين » .

كان هؤلاء الرجال يقرون فى أغلب الأحوال سياستنا الأدبية ،

وكانوا يدخلون عليها ابتكاراتهم التى لا يتوقعها أحد والتى تفوح منها الروائح الكريهة مثل معاداة السامية .

ان الادعاء بأن معاداة السامية ملازم لطابع الشعب الروسى كذب وافتراء . فهذه المعاداة غريبة عن الشعب الروسى فقد فرضت معاداة السامية دائما وفى كل مكان بشكل مصطنع ومن الخارج لخدمة المصالح الدنيئة .

فقد عمل الحكم القيصرى المطلق المستحيل ليقرها فى روسيا وليوجه سخط الشعب ضد اليهود ، وقد بعث من جديد هذا السلوك الشائن فى بعض الفترات من حياة ستالين .

لقد مقت دائما معاداة السامية لأنى أومن أولا بتعاليم لينين أكثر من أى شىء آخر فى الحياة ولأني ثانيا روسى حقيقى .

غير أن الصداقات بين المراهقين كثيرا ما تتكون بمحض الصدف .. وهكذا نشأت صداقة بينى وبين الشاعر الشاب ك ... الذى لم يشاركنى أفكارى بخصوص هذه المسألة على الاقل .

بل لقد حاول أن يقنعنى فى بعض الأحوال . كان يرى أن كون أغلبية المنشقين عن الحركة العمالية ، ابتداء من « البوند » (١) حتى تروتسكى ، ينتمون الى هذه الفئة المشكوك فى امرها ليس محض صدفة . وقد ناقشته حتى بح صوتى فكان يعيب على « قصر نظرى السياسى » . وذات يوم ، على اثر مناقشاتنا المسائية قضى ليلته عندى . واستيقظت فى الصباح على صياحه ورقصه . كان يؤدى حركات رقص افريقية تعبر عن السعادة وهو يلوح بالصحيفة الصباحية .

---

(١) « البوند » BUND : الحزب الاشتراكى الديموقراطى للعمال اليهود فى روسيا القيصرية وبولندا التي كانت انذاك تحت الحكم القيصرى .

— المترجم .

فعلى الصفحة الأولى من الجريدة بيان طويل حول مؤامرة « ذوى المعاطف البيضاء » وخبر القبض على الأطبــاء المتهمــين بمحاولة تسميم ستالين .

كان ك ... يصيح : « من منا على حق ! انهم يهود كلهم ! » .

واعترف بأنى آمنت انا أيضا بالاتهام الموجه للأطباء المقبوض عليهم . لم أكن سعيدا بذلك ، ولم أكن أرى فى ذلك مبررا للنظريات العنصرية ، ولكنى كنت ســاخطا على هؤلاء القــوم الذين كانوا يستخدمون العلم للقتل لا للعلاج حسب ما جاء فى الاتهام . ولم يتبادر الى ذهنى قط أن هذا الاتهام زائف .

هذا الشاعر ضحية :

وفى نفس الليلة ذهبت مع صديقى ك ... لمشاهدة فيلم من الثورة .. كان الفيلم يعرض بالمصادفة أعمال اضطهاد اليهود فى اودسا اثناء الحكم القيصرى . وكان يتعاقب على الشاشة مجرمون يصرخون ملء رئاتهم شعار الحقد « اقتل اليهود ، انقذ روسيا ! » وكنا نرى بوضوح شعر الأطفال اليهود عالقا بالهراوات المخضبة بالدماء .

وملت على ك ... قائلا :

ــ اظن انك لا تريد أن ترى هذا من جديد .

فأجاب ببرود وهو يبتعد عنى :

ــ اسمع يا جينيا ! . نحن جدليون ويجب الا نرفض الماضى بالكامل .

كان لصوته رنين معدني غريب وفي عينيه يشع بريق حقد جدير بالشبيبة الهتلرية ولكن على عروة سترته كان يلمع شعار الكومسومول ، شعار الشبيبة الشيوعية اللينينية ! .

نظرت اليه مذعورا .. كان هذا الرجل في الرابعة والعشرين . كان لا يمكن أن يكون قد أفسده النظام القيصري الجاهلي . لقد تربى في بلاد السوفييت على أكثر الأفكار دولية في العالم . كانت توجد على مائدته صورتان : صورة لينين وصورة ماياكوفسكي . كيف يمكن أن يصبح هذا الرجل معاديا للسامية وهو يعتقد أنه شيوعي ؟ كيف كان يستطيع أن يوفق بين هذه المفهومات المتعارضة والتي لا يمكن التوفيق بينها : بين الشيوعية ومعاداة السامية ؟

لم يكن الارهاب والاعتقالات وابادة الضحايا أكبر جرائم ستالين .. لا ، كانت جريمة الجرائم هي افساد الأرواح البشرية . كان هو المسئول عن الانحطاط المعنوي الذي تربى فيه الشاعر الشاب ك ...

المظاريف الزرقاء :

حقا ان ستالين لم يكن يدعو ولا يقدم المبررات النظرية لمعاداة السامية ، كما انه لم يؤسس نظرية عن ضرورة الوصولية والوشاية والتعسف البيروقراطي والكذب واحتقار الافراد وتزوير التاريخ . ولكن سلوكه أوجد كل هذا وشجعه .

لقد ادت هذه الأوضاع بشخص مثل ك ... الى التصرف والتفكير كألد أعداء الشيوعية فى نفس الوقت الذى كان ينتزع فيه لقب حارس النقاء الشيوعى .

كان هذا الخداع واضحا بشكل جلى فى بعض الحالات المحددة مثل حالة ك ... فقد أدركت بعد حديثنا فى السينما انه أخطر على الشيوعية من ألد أعدائها فى الغرب ولم يعد من الممكن أن يكون مثل هذا الشخص ومثل هذا العدو الفكرى ، صديقا لى . وقد قطعت كل علاقة شخصية به .

أما من على شاكلته فقد كانوا يتصرفون بصفة عامة عكس ذلك تماما . فعندما يواجهون أعداء شخصيين ، يرشدون عنهم « كأعداء الشيوعية » ويعتبرون فورا كل نقد موجه لأعمالهم على أنه « هجوم على الشيوعية » . وباختصار كان هؤلاء القوم الذين يسيئون باستمرار للفكر اللينينى العظيم ، يعتبرون الشيوعية احتكارا خاصا بهم .

وكم من مرة أخذ على الشاعر ك ... افتقادى « لليقظة الثورية » ولكنه كان مخطئا .

كنت يقظا بطريقتى الخاصة لأنى كنت أراقبه هو وأمثاله .. كنت أستبشع أن أراهم يقيمون لأنفسهم منازل فى وسط مدينة موسكو ويعيشون فى بذخ بجوار العمارات المزدحمة بالسكان حيث تتكدس عدة عائلات فى كل شقة .

كنت ألاحظ بيقظة كيف كانت هذه الصفوة البيروقراطية تلتهم بسعادة الروايات ذات اللهجة المعادية للسامية التى لا تكاد تتنكر ، وهى تتزايد يوما بعد يوم فى صحفنا .

كنت ارى كيف تتراكم امتيازاتهم تحت سمع وبصر العمال

ذوى الأجور المنخفضة ، فقد أصبح من الشائع أن يحصل هؤلاء الموظفون الذين يتمتعون بكل الامتيازات ، على « مظاريف زرقاء » علاوة على مرتباتهم ، وهى عبارة عن مبلغ من النقود خارج الحساب يفوق فى بعض الأحوال مرتبهم نفسه .

كنت ساخطا على مفهومهم للمجتمع السوفييتى .. كانوا يقسمون هذا المجتمع الى قسمين : الناس « اللى فوق » أى هم وأقرانهم ، والناس « اللى تحت » أى كل الآخرين . وقد حاولت عبثا أن أجد فى أى مؤلف شيوعى تبريرا لمثل هذا التقسيم .

كنت لا أزال أومن أن ستالين برىء من كل هذا . كنت أحب هذا الرجل وكنت أعجز عن أن انسب اليه أى عمل خسيس أو أن أحمله مسئولية خسة الآخرين .

كان يفكر من اجلنا :

ومع ذلك كان يهمس لى من آن لآخر صوت داخلى :

ـ انت تحب ستالين وتؤمن به ولكن انظر حولك . لقد نشر صورته فى كل مكان وجعلهم يقدمون مسرحيات وأفلاما لتمجيده . واسمه يعظم فى كل جريدة كل يوم مائة مرة على الأقل ، وتماثيله البرونزية والحجرية توجد حتى فى أصغر المدن . أكان لينين ليرضى بمثل هذه العبادة لشخصه ؟ ربما لم يكن ستالين هذا مثاليا

كما تتصور . ربما كان هو ايضا مسئولا عن كل هذه القذارة التى تنفر منها ؟

ولكنى كنت ارفض أن أستمع الى هذه الهمسات المثبطة للروح المعنوية . فعدم الايمان بستالين سيكون أفظع . ومع ذلك أخذت همسات ضميرى التى أريد أن أطردها من ذات نفسى ، تساورنى وتلح على .

لم أعد قادرا على كتابة أى شىء بأسلوب هذه المرحلة ، فكنت لا أؤلف الا شعرا ذاتيا على اعتبار انه شكل من اشكال الاحتجاج على الشعر الرسمى وكنت أطلع بوريس سلوتسكى على هذا الشعر دائما .

وقد اجابنى بعد أن قرأ سلسلة من قصائد الحب التى كتبتها :

ــ حسنا جدا .. ولكن لكى تكون شاعرا فى هذا العصر ، لا يكفى أن تكون شاعرا فقط .

لم ادرك حينئذ ما كان يعنى بقوله هذا ، وفجأة هز حدث كبير كل روسيا : ففى ٥ من مارس ١٩٥٣ مات ستالين .

كنت لا أستطيع أن أتصوره ميتا .. كان جزءا منى وكنت لا أفهم كيف يمكن أن ينفصل أحدنا عن الآخر .

أصيب الناس بحالة شلل . كانوا قد تعودوا على أن يفكر ستالين من أجلهم وبدونه أحسوا أنهم ضائعين .

وبكت كل روسيا وكانت الدموع صادقة ، وربما كانت دموع الخوف من المستقبل وبكيت أنا أيضا ككل الآخرين .

وانى لأذكر الاجتماع المثير الذى عقده الكتاب لتأبين ستالين . كان البعض عاجزا عن قراءة أشعارهم فى تمجيده لأن الدموع

احتبست أصواتهم ، وحتى تساردوفسكي ، هـذا الرجل العملاق القوى ، كان يرتعش وهو يقرأ .

لن أنسى أبدا كيف مشـينا نحو نعش سـتالين ، فمن كل الشـوارع الجـانبية كانت الأمـواج البشرية تتدفق نحو ميدان « تروبنوى » لكي تتجه نحو دار السوفييتات حيث عرض جثمان ستالين .

صورة من صور الرؤيا :

كنـا عشرات وعشرات الآلاف المتزاحمة المتـدافقة .. كانت الجماهير من الكثافة حتى أن أنفاسنا كونت ضبابا حقيقيا . وفى هذا اليوم البارد من أيام مارس ظل الضباب عالقا فوق رؤوسـنا يتناثر فوق الأشجار العارية التى بدت وكأنها تبكى هى أيضا .

كان المنظر خياليا . وظل الناس يتدفقون من كل مكان يدفعون الذين يسبقونهم كما لو كانوا يتعجلون الوصول الى جثمان المعبود الذى توفى ، وتحت دفعاتهم تحولت الجماهير التى تنزل المنحـدر نحو دار السوفييتات ، فجأة الى سيل بشرى عرم .

وشعرت بهذه الموجة العمياء تحملنى وأنا عاجز كما لو كنت

قطعة من الخشب انقلبت فوق الماء . كانت الموجة تدفعنى مباشرة نحو عامود نور . كنت أحس وكأن هذا الشيء المعدنى يتجه نحوى بلا رحمة أو شفقة . وفجأة صرخت من الذعر فتاة صغيرة ضغطت فى عامود النور . لم أسمع صوتها وسط التنهدات والبكاء ولكنى رأيت وجهها وكأنه صورة لا تنسى من صور الرؤيا (١) وشعرت فى جسدى بالعظام الهشة وهى تسحق فانتابنى الرعب وأغلقت عينى حتى لا أرى النظرات الزرقاء لهذه الطفلة المحتضرة .

عندما فتحت عينى من جديد وجدت نفسى بعيداً عن عامود النور .. لقد دفعتنى الموجة البشرية بعيدا مثل المعجزة .. لم أعد أرى الطفلة ، فقد اختفت تحت أقدام الجماهير ، وكان هناك رجل آخر يتخبط وهو فى مكانه رافعا ذراعيه كالمصلوب وهو يتوسل بلا جدوى لكى يتخلص من الضغط .

استمر السيل يدفعنى وأحسست فجأة بشىء لين تحت قدمى ، وتطلب منى الأمر بعض اللحظات لكى أتبين انى أمشى فوق جسم انسان فرفعت قدمى من الفزع وظللت معلقا فى الجماهير التى كانت لا تزال تجتاح المنحدر ، ولم أحاول أن أمشى على قدمى من جديد لمدة طويلة من الزمن .

---

(١) الرؤيا كتاب رمزى غامض كتبه يوحنا الانجيلى فى وصف العالم المسيحى بعد الخلاص من المسيح الدجال ، وهو ملىء بالصور المخيفة ــ المترجم .

ليست لدى اوامر :

وأنقذتني قامتي الطويلة .. كان قصار القامة يختنقون قبل أن تدوسهم أقدام الجماهير .. فقد وقعنا بالفعل فى فخ حقيقى .
كانت هناك عربات نقل عسكرية ملاصقة لبعضها تضيق الطريق وتسد علينا المرور ، وكانت الموجات البشرية تتحطم أمام هذه العربات بعنف السيول .

كانت الجماهير التي طار عقلها تصرخ : « ابعدوا السيارات .. ابعدوا السيارات ! » .

وكان هناك ضابط صغير أشقر يتفرج على هذا المنظر والدموع في عينيه كان يصرخ هو ايضا « لا . ليس فى وسعى أن افعل اى شيء . ليست لدى أوامر ! » .

كانت حواف سيارته قد لطختها الدماء ولكن الرجال والنساء استمروا يتحطمون عليها وهم يسمعون قبل أن يموتوا : « ليست لدى أوامر » .

وفجأة أحسست فى داخلي بانفجار حقد وحشى ضد هذا الغباء غير المعقول وهذا الخنوع البشرى الذى تولد عنه هذا الـ « ليست لدى أوامر » .

ولأول مرة فى حياتي ، انصب كل هذا الحقد على الرجل الذى كنا سنحتفل بتشييعه ، لأني تبينت فى هذه اللحظة انه هو

المسئول وانه هو الذى أوجد هذه الفوضى الدامية لأنه هو الذى لقن النـاس هـذا الخضوع الآلي وهـذه الطاعة العمياء للأوامر الآتية « من فوق » .

لا أعرف من أين جاءتنى هذه القوة يبدو أن اليأس يولد فى أغلب الأحوال طاقة تفوق طاقة البشر ، لذا فقد رحت أصرخ بملء رئتى : « كونوا سلاسل ، كونوا سلاسل » كما لو كنت أريد أن أعيد وحدى النظام وسط الجمهور .

لم يسمعنى أحـد ولم يفهم أحد ما كنت أعنى . فأمسـكت بأيدى جيرانى وشبكتها معا بالرغم منهم ورميتهم بأقذع الشتائم باللغة الروسية التى تعلمتها أثناء رحلتى الجيولوجية .

وحدثت المعجزة . فقد ظهر بعض الشـبان الطويلى القـامة من حيث لا ادرى واجبروا مثلى جيرانهم على أن يمسـك بعضهم بأيدى البعض لكى يكونوا حاجزا يصد السيل المتدفق .

رأيت ستالين بالفعل :

لما أحس الجمهور بأن هناك من يأمر ، أخذ يتخلص من الفزع وكف عن وحشيته ، وصـاح شـاب قوى فى سنى بلهجة آمرة : « ارفعوا النساء والأطفال فوق سيارات النقل » .

وراح الرجال من الجمهور يرفعون النساء والأطفال ليضعوهم فوق سـيارات النقل الحربيـة دون أن ينتظروا موافقة ضباط

الحرس . وظلت النساء يتخبطن ويطلقن الصرخات الهستيرية وقد أصابهن الجنون .

وتلقى الضابط الصغير الأشقر احدى هذه السيدات المنتحبات بين ذراعيه وغطى وجهها بقبعته العسكرية كما لو كان يريد أن ينسيها الكابوس الذى عاشته . كان يربت عليها بارتباك واحتشام كالطفل الذى يطلب الصفح . واستمرت السيدة فى تشنجاتها بعض الوقت ثم سكتت .

وتحولت فرقتنا الشابة الى كتيبة حقيقية لحفظ النظام ورحنا نشق الطريق باللكمات والشتائم وانطلقنا الى الأمام حيث كانت الجماهير تدوس بعضها بوحشية ، وأخيرا بدأ الحرس الذى كان يتخذ موقفا سلبيا حتى هذا الوقت ، فى مساعدتنا هو أيضا .

وأخيرا تحول هذا المد البشرى الى موكب جنائزى ، وصاح بى عريف : « انت يا رفيق ، يجب أن تتطوع فى الحرس ، نحن فى حاجة الى رجال من طرازك » .

فأجبته فى برود وأنا ابعد عن الطريق المزدحم بالموكب :

ــ سأذكر عرضك يوما ما .

لم أعد أرغب فى رؤية ستالين وهو فى نعشه ، وعدت الى المنزل مع أحد الشبان الذين كافحوا معى لتكوين الحواجز بين الجماهير . واشترينا زجاجة فودكا فى الطريق وتعجلنا شربها لكى ننسى .

وسألتنى امى : « هل رأيت ستالين ؟ » .

وأجبتها باقتضاب وأنا أقرع الكأس مع صديقى : « نعم رأيته » .

لم أكذب على والدتى . نعم فقد رايت ستالين بالفعل فى هذا اليوم ، رأيته متجسدا فى الفوضى الدامية يوم تشييع جنازته .

مشاكلنا نحلها بأنفسنا :

كان اليوم الذى دفن فيه ستالين نقطة تحول فى حياتنا فمنذ هـذا اليوم أدركنا أنه لم يعد هنـاك شخص يفكر من أجلنا ، بل بدأت أشك شخصيا فى أن أحدا فكر من أجلنا فى يوم من الأيام . وعلى كل لقد أصبح لزاما علينا أن نفكر ونفكر ونواصل التفكير .

وراحت دوامة الأحداث تحطم كل يوم عاداتنا الذهنية ، وأثبتت أن عددا كبيرا من المشـاكل الخطيرة نضجت فى روسيا وأن أحدا لن يحلها ان لم نقم نحن أنفسنا بذلك .

وكان قد أعيد اعتبار أطباء مؤامرة « ذوى المعاطف البيضاء » وجاء هذا دليلا لكل المواطنين ، الذين اعتقدوا بالاجماع تقريبـا بثبوت التهمة ، على خطورة الثقة العمياء فى الحقـائق « العلوية » وتبين الشعب الروسى ، الذى يميل بطبعه الى التصديق بسهولة ، **هذه الحقيقة فجأة** (*)

ثم جاءت قضيةبريا . كم من مرة تكلم هذا الرجـل بطريقة مؤثرة عن الشيوعية ! بل لقد أشاد بها بحماس على قبر ستالين .

ولكن بعض سكان موسكو تذكروا انهمراوا فى الماضى وجهه الذى يشبه وجه العقاب ، وقد أخفى نصفه بحجاب أسود والصقه بزجاج عربته التى تسير ببطء بجوار أرصفة الشـوارع بحثا عن

امرأة جديدة لحفلاته العربيدة . لم يكن هناك قانون أو قيم تحكم تصرفات هذا الرجل .

ان الرصاصة التى أطلقت على رأس بريا عادلة · ولـكنها للأسف عدالة متأخرة ، فالعدالة قطار يصل دائما متأخرا ·

وبدأ أوائل الذين أعيد اعتبارهم يعودون من معسكرات الاعتقال السيبيرية وجاءوا معهم من هناك بقصص تهز الأعماق عن مآسيهم الشخصية وبالأدلة على اتساع نطاق المظالم فى أثناء فترة حكم ستالين .

الشاعر مكافح :

أما خطب مالينكوف ، هذا الرجل ذو الوجه المخنث فلم تكن لتهدئ من توجساتنا · وكان يعدنا بمزيد من الغذاء والملبس لكى يصبح شعبيا . غير أن هذا لم يعد هو المطلوب .

وقد قال لى أحد جيرانى من العمال ساخرا : « عظيم ، سنملأ بطوننا بالمثلجات حتى نبشم وسنتبختر بالملابس الجديدة ولكن أين سنذهب ؟ » .

كان الشعب الروسى يريد أن يحدثوه بصراحة وبجدية عن مستقبل حياته . ولم تكن « الحياة » فى يوم من الأيام مقصورة بالنسبة له على مشاكل الأكل والملبس . ان الحياة بالنسبة للروس هى بالأخص مسألة ايمان بالمستقبل .

كنت أشعر بالضياع الكامل والعجز عن تحديد رأى فى ستالين الذى استمر عقلى الباطن يؤلهه بالرغم منى ٠٠ كنت لا أستطيع أن اقدر مدى جرائمه وأن أدرك مرة واحدة الحقيقة كلها بعد أن تنكبت لها مدة طويلة من الزمن .

وفى نفس الوقت كنت أنوء بثقل الاحساس بالمسئولية الجديدة التى ألقيت على عاتقى ٠ قد يبدو هذا فى نظر القراء الغربيون ضربا من الغرور ، ولكن يجب أن يعلموا ان الشاعر فى روسيا لا يقوم بنفس الدور الذى يؤديه فى بلادهم . فكلمة الشاعر بالروسية مرادفة تقريبا لكلمة « مكافح » ٠

القلم أمضى من السونكى :

ففى أى بلد من البلدان ، لا يؤدى الشعر الى مثل هذه الدرجة من الالتزام السياسى . واذا كان الروس يعتبرون دائما شعراءهم مرشدين روحيين « وحملة الحقيقة » فليس هذا من قبيل المصادفة .

فبوشكين الشاعر الغنائى المرهف ، كتب النداءات الملتهبة التى كانت بمثابة مواثيق ثورية حقيقية للشباب التقدمى فى أيامه . وبالرغم من أن الأفكار التى جاءت فى هذه النداءات لم تعد جديدة ، الا انها لم يعف عليها الزمن ومازالت تحتفظ حتى الآن بكثير من الحقائق الصالحة لجيلنا .

وحتى اسكندر بلوك ، ساحر الشعر الذاتى ، تناسى أحيانا المرأة ، ذلك السر الأبدى للطبيعة الذى كان مولعا به ، لكى يرفع صوت الشعب القوى المدافع عن شعبه .

وما القول فى ماياكوفسكى الذى تجسدت كل هذه التقاليد فى شخصيته الماردة ، شخصية الشاعر الثورى الذى كان يستطيع أن يقول عن حق ان قلمه أمضى من السونكى ؟

لقد اعتبر الطغاة دائما فى روسيا الشعراء الد أعدائهم . كانوا يخشون بوشكين ويرتعشون أمام ليرمنتوف ويخافون من نكراسوف .

ونكراسوف بالذات هو الذى ألقى هذه الكلمة الشهيرة فى احدى قصائده :

« أن تكون شاعرا فليس هناك ما يجبرك على ذلك . أن تكون مواطنا ، فهذا فرض عليك ! » . أما أنا فكنت كلاهما : شاعرا ومواطنا ، ولذا أردت ترك ملجأ الشعر الغنائى الذى ظللت منزويا فيه حتى موت ستالين . كنت أشعر أنه لم يعد من حقى أن أتعهد الحديقة اليابانية للشعر الحميم . كان يبدو لى أن الكلام عن الطبيعة والنساء وهمسات النفس ، والناس حولى تشقى ، عمل غير أخلاقى .

وكان المثل الذى ضربه الشعراء الروس الفطاحل ، يؤكد لى أن هذا لا يفرض على أية تضحية فنية .

ولكن الرغبة فى الدخول فى المعركة كان لا يكفى . فمهما حاولت أن اتصور نفسى ، بحماس شديد ، نبيا يصرخ بالحقيقة التى يطلبها منى الشعب ، فاننى لم أكن أعرف ماذا أكتب . كانت هناك هوة بين رغباتى واتجاهاتى الذاتية من ناحية ، وامكانياتى الحقيقية ، كنت أعجز عن تخطيها .

وقلت لنفسى ، ربما لا توجد مثل هذه المشاكل التى تشغلنى الا فى موسكو ، هذه العاصمة التى طغت فيها على الناس موجات التقلبات السياسية ، ربما يكون التوازن النفسى ما زال قائما فى داخل روسيا .

عدت الآن الى زيما ، مسقط رأسى فى سيبيريا حيث كنت أرجو التخلص من الهواجس التى تتنازعنى وأجد الهدوء اللازم للتفكير .

البطل الجديد فى حياتنا :

ولكننى أدركت للأسف ، ان هذا الهروب غير ممكن .. كانت نفس الأسئلة تتردد على شفاة كل زملائى فى السفر من مهندسين ومزارعين وكولخوزيين الذين يركبون فى مقصورتى فى المحطات وكأنهم متفقون معا مقدما .

وحدث نفس الأمر فى زيما حيث لم يكف أعمامى ، وهم عمال بسطاء ، عن استجوابى عن الأحداث فى موسكو وعن مستقبلنا .

وهكذا، بدلا من أن أجد فى موطنى اجابة على المشاكل التى تعذبنى وجدت أسئلة جديدة . وفتح ذلك عينى على حقيقة بديهية وهى أن روسيا بأسرها من البلطيق الى المحيط الهادى تفكر وتبحث عن طريقها .

وظهر فى الصحافة والأدب بطل جديد « المواطن السوفييتى البسيط » فكتبت الأغانى لتمجيده وألفت الكتب وأخرجت الأفلام

وانهال عليه الثناء فى الخطب السياسية . غير أنى اكتشفت خلال سفرى أن « المواطن السوفييتى البسيط » لم يكن بهذه البساطة . وزاد هذا من اعتزازى به .

وشعرت أن هناك انقلابا روحيا عميقا فى كل روسيا وحاولت أن أترجمه فى قصيدة طويلة بعنوان « محطة زيما » قلت فى هذه القصيدة ان القوى الهائلة الكامنة فى الشعب الروسى تتحرر وان الناس قد بدأوا ينظرون بعضهم لبعض بلا ريبة ويناقشون مشاكلهم الحيوية .

وأدركت عند عودتى الى موسكو فى عام ١٩٥٤ أن هناك خطرا كبيرا يهدد بلادى ، ولا يفصل بين الايمان الأعمى والكفر بكل شىء الا خطوة واحدة ، وكان البعض مستعدا لاجتياز هذه الخطوة خصوصا من بين الشباب .

عيون بلا :

وذات مساء ، ونحن نناقش ونقرأ قصائد فى جمع من الطلبة ، صاحت فجأة فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها بصوت متعب لامرأة فى العقد السادس من عمرها : « ماتت الثورة » .

وأجابت عليها فورا فتاة أخرى فى سنها ذات وجه طفلى مستدير وضفيرة كستنائية غزيرة وعينين تتاريتين بديعتين :

ـ الا تخجلى من التفوه بمثل هذا الكلام ؟ الثورة لم تمت ! انها مريضة ويجب أن نعاونها على الشفاء .

كانت هذه الفتاة بللا احمدولينا شاعرة ذات موهبة رفيعة واشراقة لا تقاوم وقد جاءت لتكمل تقاليد الشاعرات الروسيات مثل أحمدوفا وشفيتايفا . كانت أول من قرات له قصيدتى « محطة زيما » وأمام عينيها الجميلتين شرحت ضرورة انقاذ الشباب من الكفر بالعقائد واللامبالاة وذلك بتنقية مثلنا الثورية . ان واجبنا نحن الشعراء هو تزويد كل هؤلاء الشبان بالأسلحة الفكرية اللازمة فى معارك المستقبل .

كانت عيون بللا تفهمنى وتوافقنى ، وقد تزوجنا بعد ذلك بقليل .

وأخيرا حطم الشعر الغنائى الحواجز المانعة فى أيام ستالين واجتاح أعمدة الصحف والمجلات ، ولكنه كان يبدو طفليا ولا يلقى نجاحا كبيرا .

ولا شك أن فترات التغيير التاريخية الهامة لا يناسبها العزف على القيثارة بل يفضل الناس فى هذه الفترات صوت النفير .

وبعد صمت طويل نشر مارتينوف ، الذى مرغه النقاد الستالينيون فى الوحل قبلها سنوات ، نشر ديوان شعر وجد فيه الشباب ، من خلال الاستعارات والمنحنيات والتورية ضالتهم المنشودة . كان مارتينوف يظن أنه يعزف على القيثارة واذا به يفاجأ بأن قراءه يسمعون صوت نفير . وقال هو فى ذلك :

ـ يالها من مرحلة مدهشة تثير فيها النغمات الغنائية أمواجا وأصداء تفوق توقعات الشاعر !

وبدأ بوريس سلوتسكى ينشر هو ايضا بعض القصائد ، وكان كثير من أعماله لايزال يصطدم بحواجز الرقابة ولكنها تنقلت من يد ليد ومن الفم للأذن مما زاد من شعبيته .

ورحت أكتب بدورى قصائد سياسية ولكنى كنت أخاف دائما من الوقوع فى الخطابية . وجاءنى ذات مساء صديق بمجموعة من أعمال الشعراء الثوريين ، وشعرت من جديد وأنا أقرأ هذه الأعمال ان كلمات « الشيوعية » و « الثورة » و « سلطة السوفييت » يمكن أن يكون وقعها غنائيا خارقا عندما ينطق بها بصدق . وفى محتوى ثورى حقا .

وهكذا أثبتت أول قصيدة سياسية لى أدنت فيها التفخيم المصطنع فى المرحلة الغابرة والطابع الآلى للأوامر التى تلقى على الجماهير بواسطة مكبرات الصوت أثناء استعراضات أول مايو فى الميدان الأحمر :

هدوء ..

لا نرى الزهور ..

أين راحت الزهور ..

وتنقلت هذه القصيدة فى عدد من قاعات التحرير قبل أن تقع ، لا أدرى كيف ، فى يد الشاعر ك ... الذى لم أكن رأيته منذ سنتين . وقد اقتنصنى فى دهليز دار النشر التى يعمل بها وطلب منى أن أدخل فى مكتبه بلهجة جادة للغاية حتى انى ظننت انه سيخبرنى بوقوع الحرب الذرية فورا . وقال لى بغدر :

ـ أتدرى ماذا تكتب ؟

فأجبت :

ـ قصيدة ..

فاستأنف كلامه باشمئزاز :

ـ أتدرى ماذا سيحدث لو وقعت هذه القصيدة فى أيدى أعدائنا الغربيين ؟ سيستغلونها فى صراعهم ضدنا .

رايتنا ما زالت طاهرة :

لم تكن لدى أى رغبة فى مناقشة هذا الرجل ، وبدت لى صحبته سخيفة ، لقد قال لينين فى الماضى ان أعداءنا سيستخدمون دائما بعض فتات مائدة نقدنا الذاتى ، وان هذا ليس مبررا لعدم ذكر أخطائنا وعدم مناقشة مشاكلنا بصراحة .. فالرجل القوى ليس فى حاجة الى اخفاء نقاط ضعفه . ولما كنت أومن بقوة بلادى الروحية فقد عزمت على الكلام بصراحة عن كل ما أراه سيئا ، ومرة أخرى لم يزعزع تدخل ك ... معتقداتى قيد أنملة .

وفى عام ١٩٥٥ نظم لأول مرة « يوم الشعر » الذى أصبح بعد ذلك تقليدا حقيقيا وكأنه عيد وطنى للفن .

ودعى الشعراء فى هذا اليوم لالقاء قصائدهم والتوقيع على مؤلفاتهم فى مختلف مكتبات موسكو .

وكان على أن أظهر مع بعض الشعراء الشبان فى مكتبة بشارع موسكو ، بالقرب من الجامعة . كنت لا أتوقع حدثا خاصا . وفجأة احتشد داخل المكتبة أكثر من ٤٠٠ شاب حتى كادت تنفجر تحت

ضغطهم . وظل أكثر من ألف فى الخارج لا يستطيعون الدخول فراحوا يهتفون تحت النوافذ : « الى الشارع ! الى الشارع ! » .

وحملتنا بالفعل السواعد الشابة من المكتبة الى درج الجامعة ودعونا الى القاء أشعارنا كل بدوره من فوق هذه المنصة المرتجلة . احسسنا جميعا أن مستمعينا ينتظرون منا شيئا خاصا ، شيئا هاما بالنسبة لهم .

وقوبلت قصائد الحب بتصفيق شديد ، ولكن الانتظار كان لا يزال ماثلا فى أعين الشبان . كانوا يريدون أيضا شيئا مختلفا . وأخيرا جاء دورى ، ورايت فى وسط الهدوء الشامل آلاف العيون المصوبة نحوى وفى وسطها عيون بللا ، ترددت لحظة ثم بدأت ألقى بحماس هذه القصيدة بالذات التى لم يوافق أحد على نشرها والتى لن تحظى الا برضاء الأعداء كما يرى ك ...

ولكن مستمعى لم يفهموها بهذه الطريقة ، لم يكن من الممكن أن يصفقوا بمثل هذا الحماس لقصيدة تهاجم بلادهم . كانت هذه الأشعار بالنسبة لهم ، كما هى بالنسبة لى ، دعوة للكفاح ضد كل ما يحول بيننا وبين الحياة وبناء مستقبلنا .

كان هذا التصفيق الذى وجهه الى لأول مرة ١٥٠٠ شاب أكثر من استفتاء كان الدليل على أنى على الدرب السليم أسير ، وحثا على الاستمرار فيه . لم يعد من الممكن بالنسبة لى أن أنسى الوجوه الشابة عند درج الجامعة ..

ومع ذلك انقض النقاد على وعاتبنى بعض الأصدقاء فيما بيننا لأنى تركت « الفن الخالص » واتهمونى فى الصحف « بالعدمية » . ولكنى لم أتخوف بل واصلت كتابة قصائد تدعو للكفاح ضد العقائدية الجامدة والقذى الذى يشوه مثلنا العليا ، ورحت أعلن بملء شدقى أن رايتنا ما زالت طاهرة بالرغم من الأيدى القذرة

التي رفعتها بعض الوقت . وساهمت هذه الكلمات ، لا فى نشر « العدمية » بل فى انتشال الشبان من حالة الركود وساعدتهم على العثور من جديد على هدف للحياة . وقد جاءتني الشواهد العديدة على ذلك .

عرفنا الحقيقة :

كانوا جميعا متشوقين الى الحقيقة شأنهم فى ذلك شأن كل روسيا . كانوا يفتقدونها فى الصحف والاذاعة والتليفزيون التى كانت لاتزال متخلفة عن التغيرات التى طرأت على بلادنا .. كانوا يحبون أن تسبقهم الأحداث ويتوقعون الوحى الجديد من جانب الفنانين والأدباء . وبالفعل كانت هناك مؤلفات كثيرة جديدة وقوية ما زال العمل جاريا فيها ، ولكن النثر أقل طواعية من الشعر بمراحل . فالرواية لا تكتب فى بضعة أيام ولا تقرأ على الجمهور ، أما الشعر فكان أكثر ملاءمة لهذه الظروف فكثيرا ما تؤلف القصائد فى لحظتها كما أن قراءتها ممكنة فى كل مكان .

وماياكوفسكى هو الذى أدخل فى روسيا تقاليد قراءة الشعر على الملأ سواء أعد لهذه القراءة أو لا . ومنذ وفاته تلاشى هذا التقليد شيئا فشيئا . وقد بعثناه من جديد نحن الكتاب الشبان فى فترة ما بعد ستالين . ويبدو لى أننا صادفنا اقبالا أكبر من أسلافنا لأنى أعتقد أنه لم يحدث فى أى فترة من الفترات مثل هذا الاقبال الواسع التلقائى على الشعر .

ودعيت الى ندوات للشعر فى المصانع والجامعات والمدارس والمعاهد العلمية والمعامل . كنت القى قصائدى أمام جماهير متباينة تماما تتراوح ما بين ٢٠ والف شخص ولكنى أعترف انى لم أكن اتصور أنى سأجد تحت تصرفى بعد ذلك بسنوات أكبر قاعة موسيقية فى موسكو وان « ندوة الشعر » السنوية فى موسكو عام ١٩٦٣ ستجعل قصر لونيكى للرياضة يغص بالمستمعين حتى كاد ينفجر ٠

وفجأة هزت روسيا عام ١٩٥٦ صدمة جديدة . فقد كشف الحزب الشيوعى السوفييتى فى مؤتمره العشرين عن حقيقة جرائم ستالين ٠ لم يبال المؤتمر بسوء النية التى ستستغل بها هذه الحقيقة من جانب أعدائنا فى الخارج مما أكد ايمانى بأن من حق شعبنا أن يعرف الحقيقة وان اخفاءها عنه بهذه الحجة أو غيرها اهانة له وانعدام للثقة به .

كنت قد تبينت منذ مدة مسئولية ستالين . ولكنى لم أكن أستطيع أن أقدر مدى جرمه مثل تقرير خروتشوف وأعتقد أن أغلبية الروس كانت فى حالتى .

كان الناس يخرجون من الاجتماعات التى تقرأ فيها هذه الوثيقة التاريخية مقهورين وقد غضوا البصر حزنا ، وقد ثار سؤال رهيب بالنسبة لكثير منهم من الذين ينتمون الى الجيل السابق : هل أضعنا حياتنا من أجل لاشىء ؟

كانت لوعتهم المكتومة ملموسة فى كل مكان ٠

وأطلق الكاتب الموهوب فاديف الرصاص على رأسه بنفس مسدس الأنصار الذى كان يحتفظ به منذ الأيام الباسلة للحرب الأهلية . وهذا الانتحار يضاف الى قائمة الجرائم التى ارتكبها ستالين .

شبابنا ما زال بخير :

وبدأ الشباب يرتاب ، لا في قيمة ستالين فقط بل في قيمة كل ماضينا أيضا ، مما زاد من عذاب آبائنا .

ولكن كما يحدث دائما كان هناك آباء مختلفون وأبناء مختلفون وانقسم الجيل القديم فريقين : الشيوعيون الحقيقيون من جانب ، وهؤلاء لم ترغم أنوفهم ولم يتركوا الأحداث تتغلب عليهم وواصلوا العمل لاصلاح أخطاء المرحلة الغابرة للقضاء على العادات الضارة .

وظهر فى الجانب الآخر من نسميهم اليوم «بالعقائديين الجامدين » . كانوا يؤكدون أنهم شيوعيون ويقسمون على موافقتهم على قرارات المؤتمر الشيوعى العشرين ولكن الذعر أصابهم خوفا على مقاعدهم الجلدية التى يحتلونها . لم تكن لديهم الشجاعة الكافية لمواجهة الحقيقة ، ولفهم الطابع العنيد فى الشعار الجديد المرفوع « يجب اعادة المعايير اللينينية فى حياة الحزب » . كانوا يحاولون تلوين التقدير الحقيقى للمرحلة الستالينية ومع ذلك فحكم المؤتمر العشرين لا يحتمل أكثر من معنى واحد : لا يمكن أن يعاد بناء الا بعد الهدم .

كان نفوذ العقائديين الجامدين قويا وكانوا يتمسكون بمراكزهم فى كل مكان ويشلون بذلك عملية بناء زراعتنا واعادة تنظيم

صناعتنا وحاربوا بضراوة لمنع الغاء «المظاريف الزرقاء» والسيارات الخاصة وغيرها من الامتيازات .

كانت وسيلتهم المفضلة هى الايحاء فى كل مكان بأن الشبيبة السوفييتية تتردى فى «القدمية» وانها فقدت كل احترام للتقاليد الثورية فى بلادنا . ولكى يدللوا على صحة اتهامهم راحوا يعددون الوقائع ، فالشباب يفضلون السراويل الضيقة ويحبون موسيقى الجاز ويقرؤون هيمجنواى ويعجبون ببيكاسو ، وبنوا على هذه العناصر نظرية اجتماعية غامضة حول افساد النفوذ البورجوازى لشبابنا . ولكن من كانت هذه الشبيبة فى الواقع ؟ لقد تردى جزء منها بالفعل فى اللامبالاة ، اذ أحست هذه الشبيبة بالفراغ الأخلاقى الذى يطوقها فانقضت على البلوفرات المزركشة والأحذية المبتكرة واسطوانات الجاز معتقدة انها ستندمج فى الحضارة الغربية برقصة الروك أندرول . والحق ان أغلب هؤلاء مازالوا يجهلون وجود بيكاسو وهيمنجواى ، ولكن الصحافة الغربية تقوم بالدعاية لهم بشكل لايتناسب مع أهميتهم . وهؤلاء لم يكونوا سوى أقلية ، فالشباب السوفييتى الطيب لم يترد فى اللامبالاة بالرغم من لحظات الشك والتردد العصيبة التى مر بها .

وعلى العكس فقد صقلت حياتهم التجربة المرة التى عاشوها فى سنى مراهقتهم فقد وجدوا فى هذه التجربة القوى لا للكفاح ضد أخطاء آبائهم فقط بل ولمواصلة عملهم ايضا .

لا حدود بين الأجيال :

واعتقد ان الـكلام عن التضاد بين الأجيال المختلفة فى الاتحاد السوفييتى مبالغ فيه . لى أصدقاء بين الشيوعيين الذين فى سن والدى والذين أرتاح اليهم أكثر من بعض الشبان من سنى الذين تفوح مهم رائحة النفتالين ٠٠ ولا يعرف شباب النفس الحـدود بين الأجيال . فليس من الصحيح ان الشبان وحدهم هم الذين اكتشفوا فضائل الملابس المفصلة تفصيلا جيداً ومباهج الجاز وحتى الغرام برقصة الروك أندرول . ومن السخف من جهة أخرى الادعاء بوجود علاقة ما بين هذه الأذواق وبعض المعتقدات السياسية .

أعرف رجالا من أفضل شـباب هذا الجيل يقرؤون بالذات هيمنجواى وريماك وسالينجر وكيروال وكنجزلى اميس وغيرهموغيرهم من الكتاب الغربيين ، وهم يشاهدون الأفلام الأجنبية ومسرحيات تنسى وليامز وأرثر ميلر ويقضون الساعات فى الطابور أمام معارض بيكاسو وفرنان ليجيه .. وهم قادرون تماما على التمييز بين الجيد وغير الجيد من التراث الثقافى الغربى بنظرة انتقادية سليمة وهذا لايحول دون ان يناضلوا من أجل ثقافتهم الاشتراكية .

والمعلومات الجديدة توسع ببساطة من أفقهم المعنوى وتجعل ذوقهم متنوعا • أما الجامدون الذين لا يفهمون هذه الظاهرة فلا يرون فيها الا « العدمية » المزعومة .

وقد عملوا اذن كل ما فى وسعهم لوقف هـذه المسيرة التى لايمكن أن ترجـع القهقرى بل حاولوا اســـتغلال التوتر الدولى للمطالبة بالتشدد مع الشبيبة ولكن هذه المحاولات ذهبت سدى .

الربيع الحقيقى :

أنا لا أوافق على تعبير « ذوبان الجليد » الذى ألصقه اهرنبورج بيده الخفيفة على هذه العملية الفكرية ، بل احتججت عدة مرات على هذا التعريف وأحب أن أوضح السبب : فذوبان الجليد يمكن أن يحدث وسط الشتاء ويتلوه تجمد كامل للجليد ولم يكن هـذا هو الوضع فى حالتنا .

فأنا لا أستطيع الا أن أشبه هذه الفترة بالربيع فقـــد يتعثر الربيع وقد يتخلله الصقيع فى الصباح وقد تستمر الرياح الباردة فى الهبوب أحيانا ، وهو يخطو تارة الى اليمين وأخرى الى اليسار بل وحتى للخلف ويتشبث الشتاء به ويحاول تعطيله ومنـــع تطوره ولـكننا نشعر ان كل هذه الهجمات الشتوية مآلها الفشل : انها معارك المؤخرة التى لم تمنع الربيع أبدا من النمو والجو الجميل من التفتح .

ولما كنت أومن بربيع التخلص من الستالينية فلم أقلق كثيرا للنقد والهجوم الموجه ضدى .. لقد كتب عنى صحفى من «بارى ماتش» فى هـذه الفترة يقول انى كنت « الشـاعر الملعون من الميــدان

الأحمر » وهو لم يفهم أى شيء عن حقيقة الأوضاع ، فالعقائديون لا الميدان الأحمر ، هم الذين يلعنونى ، ولـكنهم كانوا عاجزين عن حرمانى من حق كتابة وقراءة قصائدى وشيئا فشيئا عن نشرهـا أيضـا .

واليكم بعض الأمثلة ، فقد ظهرت أخيرا قصيدتى «محطة زيما» فى عام ١٩٥٦ وعلى الفور صب على بلشفى قديم أشد الاتهامات فى «كومسوملسكايا برافدا » (جريدة الشبيبة) فقد اكتشف فى ثنايا قصيدتى بوادر الكفر بالعقـائد والتبجح وغيرها من الرذائل البشعة . ومع ذلك فقد انهـــالت على الجريدة فى اليوم التالى آلاف وآلاف الخطابات من جميع أنحاء البلاد التى تولت الدفاع عنى . وحتى « الكومسومولسكايا برافدا » أفسحت أعمدة صفحاتها لقصـــائدى .

ثم ظهـر ديوانى « طريق المتحمسون » ولم يرفق به النقـاد ولكن نسخه نفدت فى بضع ساعات وأصبح النـــاس يشترونها مستعملة وكان هذا ردا بليغا على خصومى .

وأخيرا نشرت مجلة « الحرس الفتى » فى صـدر عددهـا ؛ عددا كبيرا من قصائدى ضد عبادة الفرد . ويبدو انه قد حدثت بعض المنازعات فى الأوساط العليا بخصوص هذا العـدد وتمت محاولات لسحبه من السوق ولـكن بعد فوات الأوان . كان لابد من البحث عنه فى منازل الأفراد لأن العدد نفد فى بضعة أيام . فأطلق النقاد يهاجموننى أنا « وعدميتي » بهمة متزايدة .

وفى خضم هذه الهجمات وصلتنى ذات صباح برقية من على ظهر سفينة من اسطول البلطيق رفعت روحى المعنوية .

« قرأنا قصائدك ــ برافو ــ استمر » .

كانت البرقية موقعة باسم كل طاقم السفينة ، والذين يعرفون تاريخ بلادى يعلمون شهرة ومركز بحارة البلطيق عام ١٩١٧ .

كانت رســـالة خلفائهم تعويضـــا لى عن كل الهجمات التى اتلقاها . كنت أمشى مرفوع الرأس فى شوارع موسكو كما لو كنت قد حصلت على وسام ذهبى .

غير محق فى شكواى :

فى نفس هـذا العـام ١٩٥٧ ، استقطب النزاع الذى يقسم أوساط المثقفين حول قضية دودنتسيف . فقـد استقبلت روايته « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » بالترحاب من كافة الاتجاهات الفنية وكادوا أن يشـبهوا المؤلف بتولستوى . وكنت استاء من هذا الاسراف ، ذلك انى ، مع اعترافى بقيمة رواية دودنتسيف ، الا انى أجد بها بعض نقاط الضعف الفنية .

وفجأة استدار نقادنا بزاوية قدرها ١٨٠ درجة . لم يعـــد دودنتسيف تولستوى الجديد وأصبح بين عشية وضحاها عميـلا للاستعمار . وجعلتنى هذه الاتجاهات السـخيفة أقف بحزم فى صفه ودافعت عنه علنا كزميل لى ومواطن سوفييتي وفنان .

وبعد ذلك بأيام فصلت من المعهد الأدبى . كانت الحجة عــدم الانتظام فى حضــور المحاضرات ، والحق أنى لم أكن طالبا أقــل

مواظبة في عام ١٩٥٧ عما كنت في السنوات الأربع السابقة ، ولكني لم أكن أضايق أحدا في الماضي ٠

من العسير على أيضا ان أفسر فصلي من الكومسومول (اتحاد الشبيبة الشيوعية) لأنه لم يتكبد اى شخص مشقة مناقشتي وذكر أسباب الفصل يبدو انى كنت مجرد « متباعد عن الحياة » ٠

كانت روحى المعنوية منخفضة ، وفى هذه الأيام قابلت الشاعر ياروسلاف سميلياكوف الذى سجن ثلاث مرات أثناء حكم ستالين كان راجعا من معسكر للاعتقال، كانت كل مصائب الحياة قد توالت على هذا الرجل وتهيأ كل شيء للقضاء على موهبته كشاعر . ولكن بالرغم من ذلك فقد كتب وهو فى معسكر الاعتقال ، وبالرغم من ظروفه البشعة ، قصيدة رومانتيكية كبيرة تفيض بالايمان بمثل الثورة والثقة فى انتصار العقل .

كان هذا الرجل قد حقق مآثر حقيقية ، واذا كانت هناك قصيدة استحقت فعلا أكبر جائزة فى بلادنا : وسام لينين ، فهى بالتأكيد قصيدة ياروسلاف سميلياكوف ٠

لعبت مقابلاتى مع هذا الرجل دورا هاما جدا فى حياتى آنذاك ، اذ رأيت كيف أن ماضيه الرهيب لم يزعزع معتقداته وايمانه بالمستقبل قيد انملة فتبين لى انى غير محق فى اليأس أو الشكوى من مصيرى ٠

ولاشك أن مختلف الشتائم انهالت على ونعتتني ب « الشاعر المخادع الغنائى » و « القائد الفكرى للأوغاد من المثقفين » و « مداح الملاءات القذرة » و « البورجوازى المنحل » و « ذواقة العربدة » و « الثورى المزيف » وغيرها وغيرها .

ولكن ظهرى السيبيرى استطاع أن يقاوم هذا الهجوم .. لم أكن وحدى ، كان لى أصدقاء يساندوننى مثل سيمليا كوف وفينوكوروف وتشيبيايف ولوكونين وميرجوف وانطونولسكى كنت أتمتع بصداقة الفنانين الرائدين فاسيلييف ونيزفستنى وكنت أتسلم كل يوم خطابات وهدايا مؤثرة لأن مرسيلها مجهولين فى أغلب الأحوال . لم يعد يترتب على الشتائم التى يلقيها الجامدون نفس النتائج فى ربيع التخلص من الستالينية ، كما كان الأمر فى المرحلة الغابرة .

فسخطهم لم يكن كافيا لكى يحطمنى ، بل ولم يحل بينى وبين نشر قصائد جديدة أو القائها على الجمهور ، وبفضل ضغط الشباب أعيدت لى عضويتى فى الكومسومول وانتخبت فى سكرتارية منظمة المعهد الأدبى وقد احتفظت بهذا المنصب أربع سنوات متتالية . كان من الواضح بالنسبة لى أن الربيع يتابع مساره وان كل يوم يقربنا من الصيف .

لدينا مواهب جديدة :

أختتم هذه الملاحظة من سيرتى الشخصية قبل أن اترك باريس ومازلت متأثرا بالاستقبال الذى لاقيته فى Mutualité الميتواليته وفى قصر Chaillot شايوه ، وقد قدمت عدة ندوات للشعر فى الخارج ولكن نادرا ما صادفت مستمعين بهذا القدر من الحماس ، وأسفى الوحيد هو أن أصدقائى الشعراء والكتاب

السوفييت من عهد ما بعد ستالين لم يكونوا بجانبى ولم تتح لهم الفرصة التعرف على الجمهور الباريسى ، فقد ظهر عندنا فى السنوات الاخيرة عدد كبير من المواهب الجديدة .

فعازف الكمان السابق يورى كازاكوف الذى بدأ فى نفس الوقت معى فى صحيفة « الرياضة السوفييتية » بسلسلة من المقالات عن حياة الرياضيين الأمريكيين ، تحول الى كاتب مرهف يصدر من نبع تشيكوف .

واستغل الطبيب الناشىء اكسينوف كل لحظة فراغ أثناء نوبتجيته فى المستشفى ليكتب أول قصصه بالأسلوب الجديد « فوق المعاصر » . وكانت بللا أحمدولينا ، لاتزال فى العهد الأدبى تحرك الريشة باصابعها الرقيقة وتسود الورق بحروف كبيرة كالأطفال ، وكان لقصائدها قوة الفحولة وفى نفس الوقت قدرة على السحر لاتملكها الا امرأة .

والى جانبها رودجستفينسكى ، وهو لاعب كرة طائرة سابق ذو ايد قوية يؤلف أشعارا عنيفة كتبت لها الشهرة .

أما بولات أكودجافا ، فكان يضيع كل يومه وسط المخطوطات المملة فى دار النشر وفى المساء يعزف على القيثارة ويغنى لصديقين أو ثلاثة مقطوعات غنائية لامثيل لها وبجواره كوب فودكا . ولم يكن يتصور ان هذه المقطوعات ستسجل بعد ذلك بسنوات قليلة على آلاف الأشرطة وتجعله المغنى المفضل لدى شباب روسيا .

أما أندريه فوزينفسكى ، ذلك الشاب النحيف ذو العينين الثاقبتين فلم يكن سوى طالب هندسة معمارية . وكان يخص باسترناك بالقراءة الأولى لأشعاره التى كانت لاتزال مجهولة من الجمهور . ولم يكن هناك اى شخص آنذاك يتصور الموهبة غير

العادية لهذا الشاعر « الذرى » سوى الأستاذ المعتزل للشعر الروسى .

كان كثير من الشبان يحجون بانتظام لزيارة باسترناك وكثيرا مانصحونى بمصاحبتهم ولكنى كنت أرى دائما أن أفضل المقابلات تتم بالمصادفة كما انى كنت لااريد أن اضايق باسترناك .

واتيحت لى هذه المناسبة أخيرا فى عام ١٩٥٢ فقد طلب منى اتحادالكتاب أن أصحب الأستاذالايطالى ريبولينو الى منزل باسترناك الريفى . وسافرنا دون أن نتفق معه على موعد .

الشاعر المعتزل :

عندما وصلنا لاحظنا فى مؤخرةالحديقة رجلاممشوق القوام، اشيب الشعر ، يرتدى سترة بيضاء بسيطة ، كان يبدو وكأنه يختبىء وراء شجرة ، قال وهو يرانا ، « صباح الخير » .

وفحصنى بنظرته الداكنة المتعجبة وقال لى دون أن يترك يدى :

ــ أنت افتوشنكو ، تماما كما تخيلتك .. نحيف ، طويل، تبدو خجولا وان لم تكن كذلك فى الواقع .. اعرفك منذ مدة طويلة واعرف انك لاتواظب على الدراسة فى المعهد الأدبى .. أعرف ايضا الكثير عنك .. ولكن من جاء معك . لاشك أنه شاعر من جيورجيا . أنا أحب الجيورجيون كثيرا .

وأوضحت له ان مرافقى هو الأستاذ ريبولينو الايطالى ، ولم تبد على باسترناك أى دهشة .

ـ حسنا جدا . أنا أحب الايطاليين أيضا .. لقد جئتم فى الوقت المناسب ، سيقدم الغداء بعد لحظات . تعالوا فى المنزل . انا واثق أنكما تشعران بالجوع .

قال ذلك ببساطة وبشكل طبيعى حتى اننا شعرنا فورا أننا على سجيتنا كما لو كنا أصدقاء منذ مدة طويلة نتردد عليه كثيرا .

لا يبدو بوريس باسترناك فى سنه الحقيقية . كان يمكن أن تعطيه ٤٧ أو ٤٨ سنة . وكانت تفوح منه نضارة غريبة كما لو كان باقة من الزهور قطفت للتو ولاتزال تحتفظ على أوراقها بندى الصباح . كان وجهه متحركا بشكل غريب ، وابتسامته التى تكشف عن أسنان بيضاء تبدو غير مبالية بشكل غير مألوف . كان هذا الرجل يعيش خارج الزمن ولكن كان هناك أيضا شىء من التمثيل فى تصرفاته .

وكتب ذات يوم لميرهولد(١) يقول : « اذا أصبحت الشخصية التى تمثلها حقيقتك ، فهذا حسن ، استمر فى ذلك » .

أعتقد أن هذه الكلمات تنطبق عليه تماما .

---

(١) ميرهولد «Meyerhold» : مخرج سوفيتى شهير . أعدم عام ١٩٢٧ .

مثل العربي وجواده :

كان أداء الدور الذي اختاره لنفسه في الحياة يتطلب شجاعة فائقة .. لابد أنه كان شخصية غير عادية حتى يحتفظ بهذه الابتسامة اللامبالية في عصرنا الذي لا يعرف البسمة . وقدرته على تلوين شخصيته بهذا الشكل هي وسيلته في الدفاع ضد هذا العصر .

كان بوريس باسترناك يؤثر على الناس لا كقائد ولكن كالعطر والضوء والأشجار . قال لنا وهو يبتسم :

ـ أتدرون ماذا حدث لي اليوم . لقد جاء لزيارتي هذا الصباح نجار أعرفه وقد أخرج من جيوبه زجاجة فودكا وقطعة سجق وقال لي : « لقد أصلحت لك سقف منزلك في العام الماضي ولم أكن أعرف من أنت . وقد قال لي اناس طيبون انك تدافع عن الحق ولذا أريد أن أشرب كأسا معك » وقد شربنا ثم قال لي : « سر بنا » ولم أفهم في أول الأمر ، ماذا يعني . فسألته «أين تريد أن أوصلك»؟ فأجاب بشكل طبيعي : « أين ؟ ماذا يعني بذلك ؟ سر بنا نحو الحقيقة » يا لها من فكرة غريبة ! لم أقصد في يوم من الأيام أن أسير بأي شخص نحو أي مكان . الشاعر مثل الشجرة التي تصدر حفيفا في الريح ولكنها لا تستطيع أن تسير بأحد .

كان يحدجنى بنظرة مائرة وهو يحكى قصته ثم وجه كلامه لى بصوت ملىء بالايماءات :

ـ وأنت يا افتوشنكو ، هل توافق على رأى ؟ هل تعتقد أنت أيضا أن الشاعر ليس الا شجرة لم تسر بأى شخص الى أى مكان ؟

وقد كتب سافنيسكى فى الماضى يقول ان باسترناك يشبه فى نفس الوقت العربى وجواده ·· يقصد انه حر ومقاد فى نفس الوقت وهذه حقيقة غريبة بالفعل .

وقرأ علينا باسترناك أشعاره بعد الغداء وهو يهز رأسه ويمط الكلمات ·· كانت أشعاره خفيفة متوثبة كتبها حديثا وعندما وصل الى المقطع الذى يقول :

كلما ابصر جوئلة .
كان ينطلق .
وتصبح أكبر المغامرات .
فى متناول يده .

والقى نظرة عجلى الى زوجته التى كانت تعبث بعصبية بطرف المفرش وأطلق تنهيده سريعة ، كما لو كان يأسف على شبابه الفياض الذى مازال قريبا الى قلبى ·

وطلب منى أن أقرأ أشعارى ومن الواضح ان قصيدتى « الزواج » عن زيجات الحرب فى سيبيريا عام ١٩٤١ لم تعجبه · وعلى العكس من ذلك تحمس لقصيدتى الثانية « المقدمة » . كان ينفعل كالطفل عندما يعجبه بيت من الأبيات فكان يقفز من على كرسيه ويضرب بيديه وهو يبتسم بسعادة ، وعندما سكت قام نحوى وضمنى بين زراعيه .

وقد صدمني رد فعله لأن قصيدة « الزواج » كانت أقرب الى قلبي وارق في رأى من « المقدمة » التي اعتبرها عملا سطحيا. ولم أدرك الا بعد مدة ، في مناسبة اخرى ، أن باسترناك رجل حساس جدا يتأثر بسرعة ، وينفعل بأشكال مختلفة حسب مزاج اللحظة .

وقد قرأت له قصيدتي « الوحدة » فانفجر باكيا وهو يتنهد :

— انك تتكلم على ، على أنا .. أنا .

واني لأرجو ان تتاح لي في يوم من الأيام فرصة كتابة تفاصيل مقابلاتي الأربع مع باسترناك . وعندما ودعني في مقابلتي الأخيرة قبلني على الفم حسب التقاليد الروسية .

ماساة باسترناك وقوته :

وأولئك الذين أرادوا في الغرب أن يستغلوا اسمه في حملات الحرب الباردة ، ارتكبوا جريمة كبيرة ، الا اني لن أغفر أبدا لبعض كتابنا الذين استغلوا هذا المبرر لكي يلغوا اسم باسترناك من حوليات أدبنا .

كان باسترناك يحب بلاده ولم يرم أبدا الى الاساءة اليها . كانت هناك حقا أشياء لم يستطيع أن يدركها ولم يصدر هذا منه عن نية سيئة . كان ببساطة لا يستطيع ان يدركها .

نظر باسترناك الى كثير من أحداث حياتنا السوفييتية كما لو كان على الضفة الأخرى من نهر الزمن . كانت غريزته تسمح له بأن يميز من خلال ضباب المسافة الطويلة الخطوط الخارجية لبعض الأشياء ، وفى بعض الأحوال كانت الخطوط الخارجية تهتز عندما ينظر اليها من الضفة الأخرى .

لقد عاش سنوات طويلة فى منزله الريفى لاينتقل الى موسكو تقريبا . وقد زوده هذا باستعداد هائل على الاتصال بالطبيعة واطلاق الحديث مع نفسه . ولم يبعده هذا الانعزال عن صخب المدينة ، بل أبعده أيضا عن الصراع وعن التغيرات التى حدثت فى العالم ، وقد اعترف هو بذلك أحيانا .

وقد قال بوريس باسترناك ذات مرة عن نفسه انه علامة على الحدود التى تفصل بين مرحلتين تاريخيتين ، وليس هناك تعريف أفضل من ذلك . وهذا الوضع هو الذى خلق قوة هذا الشاعر العبقرى كما كان السبب فى مأساته .

الواقعية والتجريد :

فى عام ١٩٥٧ تعرفت على رجلين أصبحا فيما بعد صديقين حميمين وقاما بدور هام فى تكوينى . وهما المصور يورى فاسيليف والنحات أرنست نيزفستنى ، وكلاهما أكبر منى وقد مرا بمدرسة الميدان الشاقة وأصيبا بعدة جراح ، وقد رفضا بعد الحرب أن يتبعا بشكل أعمى « مواصفات » الفن الأكاديمى وراحا يبحثان

عن أشكال جديدة وكانا يريان ، وهما محقان ، أنهما دفعا بالدم ، حق رســـم ونحت ما يروق لهما ، ولكننــــا كنا لانزال فى تلك المرحلة التى لم يكن فيها الآخرون من هذا الرأى على الاطلاق فعرف فاسيليف ونيزفستنى الحياة الصعبة .

كنت قبل أن اقابلهما عديم الثقـافة تماما فى مجـال الفنون التشكيلية فكان الاقطاعيون يمثلون بالنسبة لى أحدث التيارات . ولم أكن قد رأيت أعمال الذين جاءوا بعدهم . لقد أقيم معرضـا لبيكاسو فى موسكو ولكن الحصول على تذكرة دخول كان أصعب من كسب سيارة فى اليانصيب .

كنت أعرف عن طريق الصحافة ان هنـاك تيارات حديثة فى الفن التجريدى ولكنى كنت أعتقد أن أصحاب هذه التيارات ليسوا الا مرتشـين يثرون بالمضـاربات الفنية وليسـوا الا أعداء ألداء للشيوعية .

وهاأنذا أقابل اثنين من انصـار الفن الحديث يجذبهما الفن التجريدى والاثنان شيوعيان طيبـان وبطلان سـابقان فى الحرب وكلاهما منكر لذاته فى المجال المادى . وأدركت حينئذ أن هناك هوة بين المفاهيم التى لقنت لى وبين الحقيقة الفنية .

وقد تمكنت من مقابلة فنانين شبان روس بفضل صـداقتى لفاسيليف ونيزفستنى وتعرفت بعد ذلك بمدة ، خـلال رحلاتى للخـارج ، بفنانين مختلفين مثل بيكاسو وماكسى ارنست وميرو وهنرى مور .

لاشك أن هناك عددا كبيرا من المشعوذين والمقامرين فى عالم الفن الحديث ولكنى تعلمت كيف أميز بينهم وبين الفنانين الحقيقيين الذين يبحثون باخلاص وفى أغلب الأحـوال بعبقرية ، عن طرق

جديدة . وأعرف ايضا أن الانسان لابد أن يكون عقائديا متزمتا حتى يسمى هؤلاء الفنانين « خدم البورجوازية » .

وأصبحت مولعا بالتصوير وقد حولت كل دخلى الى لوحات فأصبحت الآن حوائط شقتي مغطاة بأعمال من كل المدارس الواقعية والتعبيرية والسريالية والتجريدية وهى تعيش فى جوار حسن ولا تدفعنى أبدا فى طريق الفكر البورجوازى .

وهذه اللوحات تلازمنى كالاصدقاء وكثيرا ما يدور بينى وبينها حديث صامت عندما أكون حزينا ، وعندما أتطلع اليها وأفكر فى كل المذاهب ، أرى فى أغلب الأحوال أن الواقعية مهما كان الأمر أرقى أشكال الفن ، ولكن الواقعية قد تتخذ بالنسبة لى مئات ان لم يكن آلاف الأشكال المختلفة ، ويمكن أن تكون معبرة كما يمكن أن تكون عكس ذلك .

واعتبر واقعيا كل عمل يحرك روح الانسان حتى ولو كان هذا العمل لا يمثل منازل أو أشخاصا أو أشجارا وعلى العكس من ذلك اعتبر اللوحات التى تصور أشجارا أو أشخاصا تجريدية اذا كانت بلا حياة ولا تنفعل لها .

كان صاحباى فاسيليف ونيزفستنى يحلمان . كان فاسيليف يحلم بأن منزل بريا سيكون تحت تصرفه حتى يحول هذا المركز المعروف للفساد والمناورات السياسية الى قصر للفن الحديث .

كان نيزفستنى يحلم ببناء مخزن على ضفاف الموسكفا لينحت سرا نصبا هائلا للحرية ، والمفروض فى هذا المخزن أن يرتفع طابقا فوق طابق مع تقدم عمله دون أن يدرى أحد بما يتم خلف الحوائط الخشبية ولا ترفع هذه الحواجز الا يوم أن ينتهى النصب فترى كل موسكو التمثال فى أوج روعته ، وكان يضيف قائلا :

ـ فى هذا اليوم سنخرس نقادنا الفنيين .

كان صاحباى تفوح منهما رائحـة الصلصـال والألوان وكانا يحلمان بلا توقف وكان ايمانهما والهامهما ينتقل كالعدوى للذين يترددون عليهما .

حياتي وحياة الآخرين :

اما انا فكنت اجتاز فترة صعبة من حياتى الشخصية اذ كنت قد طلقت زوجتى فكنت اشعر بالوحدة بل واليأس أحيانا . وكان المثل الذى يضربه لى فاسيليف ونيزفستنى يمنحنى القوة لـــكى أتماسك وأركز على عملى .

وبدأ لى أن مسارى كشاعر قد حكم عليه بالرتابة . كان النقاد يرمقوننى بالقذى ، أما المستمعون فكانوا يصفقون لى بود .

وفهمت مع مرور الوقت أن التصفيق ليس دليلا على جودة أعمالى ولكنه يبين أنى أتمتع بتيار من العطف والاقبال من جانب الجمهور .

وهكذا همس لى هاتف من ذات نفسى ، البعض يهـاجمونك وهذا ليس خطرا جدا ولكن البعض الآخر يحبونك وهذا يفرض التزاما عليك ، انه بمثـابة شـيك على بيـاض ليس من حقك أن تبدده .

أصبحت اذن أكثر انتباها للمناقشـات التى تعقب الندوات الشعرية التى أقدمها ولأحاديثى مع المستمعين .

كانوا بصــفة عامة يحســون أنى أمر بمرحلة اضطراب لأن أشعارى تعكس بالضرورة مشاكلى الشخصية . وكان عدد كبير من قرائى يعطفون على حالتى المعنوية ولـكنهم كانوا يلفتون نظرى أيضا الى عدم نسيان حياة الآخرين ومشاكل الساعة بصفة عامة .

الحقيقة وحدها :

ذات مرة اشترك أكثر من ٢٠٠٠ شخص فى مثل هذه المناقشة فى معهد علمى والقى أحد الطلبة خطابا قصيرا موجها لى :

« نحن فى حاجة الى شعرك الغنائى الذى يعبر عن ذاتك ولا ننقدك من أجل قصائدك الشخصية ولكن تذكر أنك لســت ملك نفسك فقط .. لقد وضعنا ثقتنا فيك لا من أجل شعرك الغنائى وحده ، فلا تفرط فيها » .

وفى مناسبة أخرى جاءتنى عاملة متعبة لتنصحنى :

« يا ابنى لا تكتب الا الحقيقة ، الحقيقة وحدها . ابحث عنهـــا فى نفسك وقدمها الشعب ، وابحث عنها فى الشعب وضعها فى نفسك » .

وهذه الكلمات التى تنطلق بالحكمة الشعبية ، وذات الطابع الروسى الصميم ، كانت تؤكد لى أن قرائى كانوا يساهمون معى فى أعمالى دون أن يدروا . وعلى كل فقد تعودت على قراءة أعمالى أولا ، على رجال من مختلف المهن من الأصــدقاء أو الأشخاص المجهولين ولا اقدمها للنشر الا بعد المرور على هذه « الرقابة » .

وكثيرا من الشعراء الشبان كانوا يفعلون مثلى ، وقد جعلنا النقاد من قرائنا ذوى الذوق الشعرى المرهف ، نتفادى العديد من العثرات فكانت أعمالنا تتطور فى نوع من المسار الموازى الذى يتفادى النقد الرسمى وان كان يلقى النقد المتشدد من جانب الذين يشاركوننا فى هجومنا ، ولكنى كنت لا أريد أن أظل حبيس جو موسكو . فقد أحببت السفر دائما وكنت أعرف ، من ذكريات طفولتى فى سيبيريا ، أن روسيا لا تقتصر على عاصمتها فقط . كنت أستغل اقل فرصة لكى أهرب الى أقصى ما استطيع لكى أعود لمشاهدة التايجا والبلد الذى نشأت فيه .

أستطيع أن أقول انى طفت بكل الاتحاد السوفييتى ، وقد ذهبت الى الشرق الأقصى حتى كامتشتكا والى جورجيا وعملت فى الأراضى العذراء فى آسيا وأقمت على ضفاف الفولجا . وراح خصومى فى موسكو يدللون على انى انفصلت عن شعبى وانى أصبحت الزعيم الروحى « للصيع » وانى أسعى للقيام بدور « معبود الآنسات المتساهلات » .

الحدود تقهرنى :

وفى ذات يوم دخلت مكتب سكرتير الفرع المدنى للشبيبة الشيوعية فى مدينة كومسوملسك على نهر أمور بعد طواف طويل فى السهول السيبيرية .

كان البعوض قد انقض على ولدغنى فى كل مكان حتى أدمانى . وكانت ملابسى فى حالة رثة ولا أملك كوبكا واحدا فى جيبى .

ولم يخف السكرتير دهشته عندما قلت له اسمى . فعلى مكتبه كانت توجد بالذات احدى صحف موسكو التى تصورنى انى الفتى المدلل للشبيبة العدمية و «فارس النساء المتساهلات»، وقد ابتسم فى آخر الأمر وقال لى : « لست أعرف شيئا عن النساء ، ولكن لا شك أن البعوض يحبك » .

وكثيرا من نقاد الأدب الذين يحددون من الذى فقد الصلة بالجماهير ، ومن الذى لم يفقدها ، كانوا هم أنفسهم قد انعزلوا عنها من زمن بعيد .

لقد قال احدهم وهو شخصية مشهورة :

ـ ما الداعى فى تسكعكم فى سيبيريا أو كامتشتكا ؟ انكم تضيعون وقتكم وأموال الدولة اذا كنتم تريدون أن تقابلوا العمال اركبوا الترام وسينقلكم لقاء ١٥ كوبكا الى مصنع من مصانع ضواحى موسكو !

ونظر احد الكتاب الشبان بحزن الى هذا الناقد الناصح الأمين وقال له :

ـ أيها الرفيق العزيز لو انك تركب الترام كثيرا لربما لاحظت أن التذاكر أصبحت منذ عشر سنوات بـ ٢٠ كوبكا لا ١٥ كوبكا .

كتبت فى احدى قصائدى أن الحدود تقهرنى وانى أجد انه من غير المقبول الا اعرف نيويورك أو بيونس ايرس وأنى اريد ان اتجول فى لندن حتى ولو كنت لا أعرف الانجليزية وانى احلم بالطواف فى باريس فى الأوتوبيس .

وقد انقض خصومى على هذه القصيدة كما هاجموا طلبى زيارة الخارج ، وكانوا يصيحون : « أكمل أولا تكوينك الماركسى فى المنزل » ولكن ما هو التكوين الماركسى ؟ أعتقد أنه لا يكتسب فى المدارس ، ولكنه عملية متواصلة من الملاحظة والفهم المستمر

للأشياء الجديدة ، والماركسي الحقيقي رجل فى حالة تكوين مستمر.

كانت بلغاريا اول بلد أجنبي اقوم بزيارته ، وقد اوقف سيارتنا على أحد الطرق الريفية ، شريط من اللافح المطرزة والمعقودة معا كان هناك حفل زفاف في القرية ، فدعانا البلغاريون بشكل تلقائي الى الاشتراك في الحفل . فشربنا النبيذ فى صحبة الزوجين الشابين وشاركناهم فى حفل الغداء المقام بالمناسبة .

كانت لدي بالمصادفة زجاجة فودكا فقررت أن أشربها مع أصحاب الدعوة لأعبر لهم عن شكرى على حفاوتهم . وفجأة جاء أحد أفراد فريق السياحة ليهمس فى أذنى وقد بدا عليه الذعر:

ـ اتدرك ما انت فاعل يا يوجين الكسندوفتش ؟ انك تسيء الى سمعتنا جميعا !

لم افهم ما يعنى ولكنه شرح لى الأمر فى نفس الليلة فى غرفتي بالفندق وقد أراد أن يثبت لى باللهجة الجديرة بالقضايا الخطرة أن البلغاريين سيعتقدون من الآن فصاعدا أن كل السوفييت يسافرون وحقائبهم مشحونة بزجاجات الفودكا وان تصرفى هذا يشوه صورة الرجل السوفييتى فى نظرهم ..

ولاشك أن هذا الناصح الأمين كان «ماركسيا كامل التكوين» ومن الممكن اطلاقه فى الخارج دون الخوف من ارتكابه اية زلة .

من أفظع ما ورثنا عن الستالينيين هذا التشويه النفسى لبعض المواطنين ففى أثناء حكم ستالين لم يكن يسافر الى الخارج الا الدبلوماسيين والشخصيات الرسمية ، أما بالنسبة للآخرين فالعالم الخارجي مغلف بضباب غريب . وكان هذا العالم فى نظر البعض الآخر عالما معاديا مخيفا . ولذا ظل رفيقى فى السفر محتاطا فى بلد صديق مثل بلغاريا .

كفاح واحد :

غير أن ضباب علاقتنا مع الخارج انقشع شيئا فشيئا ، وتدفق على روسيا الآلاف من السواح من جميع بلدان العالم واشترك عشرات الآلاف من ذوينا فى الرحلات السياحية فى الخارج ..

قام مهرجان الشبيبة فى موسكو بدور هائل فى ازالة الأفكار المسبقة واجتاح شوارع العاصمة شباب من جميع الألوان ، فكان تآخيهم يمثل بالنسبة لى ميلاد عالم المستقبل وعندئذ فكرت كثيرا فى كلمات ايلوار « من أفق انسان الى أفق كل الانسانية » .

وادركت ايضا أن كفاحنا فى داخل بلدنا لا ينفصل عن الكفاح الذى يشنه الناس فى كل مكان من أجل عالم أفضل .

لذا لم يقتصر تفكيرى فقط خلال رحلاتى الحديثة على تأمل المناظر الطبيعية فى الخارج ومشاهدة الآثار التاريخية بل بحثت فى كل مكان عن الرجال الذين يكافحون ضد الكذب وضد التعسف واستغلال الآخرين ، وقد وجدت رجالا من هذا الطراز فى كل القارات.

وفى الصيف الماضى حاول بعض الشبان المنحرفين ان يعكروا صفو احتفالاتنا فى هلنسكى أثناء مهرجان الشباب الجديد ،

فكتبت فورا قصيدة بعنوان « فاشية الصبية » ترجمت الى عدة لغات وانتشرت بين مختلف الوفود .

وقال لى أحد مسئولى وفدنا فى المهرجان « لا تؤاخذنى كنت اسيء الظن بك ولم أكن أتصور انك تستطيع أن تكتب مثل هذه القصيدة .. يجب أن تكتب كثيرا فى موضوعات تتعلق بالخارج . ان نقدك للفكر البورجوازى قوى » .

يا لهما من سذاجة ! . كيف أشرح له أن من حقى أن انقد مالا يروقنى خارج حدودنا لأنى أتكلم بصراحة عما لايعجبنى فى بلدى نفسه ، لو انى اكتفيت بنقد الآخرين وحدهم لما احترمت نفسى وقد اعترف لى هذا الرجل بأنه لا يستطيع أن يفهم كيف انى كتبت فى نفس الوقت قصيدة « بابى يار » و «فاشية الصبية» . أما بالنسبة لى فالقصيدتان جزء من كفاحى من أجل الاستقلال .

كانت مشكلة معاداة السامية تقض مضجعى منذ امد طويل وأردت أن أفرد لها قصيدة ، ولم تتحول هذه النية الى عمل الا على اثر رحلة قمت بها لمدينة كييف وبعد زيارة هذا المكان الرهيب الذى أعدم فيه جنود العاصفة الألمان ملايين اليهود الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال ، وكتبت «بابى يار» فى نفس اليوم الذى عدت فيه الى موسكو ، وكان يتعين على أن أقدم فى نفس اليوم محاضرة فى المعهد الهندسى عن رحلتى الى كوبا وأن ألقى بعض قصائدى ، وهناك قرأت لأول مرة « بابى يار » . وأنا ألقى قصائدى عادة من الذاكرة ، أما فى هذه المرة فكنت فى حالة اضطراب وعصبية شديدة ، فاحتفظت بالأوراق تحت بصرى .

وعندما سكت ، ساد القاعة صمت كصمت القبور ، وظللت انظر الى أوراقى وقد خفت من رفع عينى وأحسست أنى ضعت تماما ، واخيرا نظرت أمامى ، كانت القاعة كلها وقوفا ودوت

عاصفة من التصفيق لمدة دقائق بعد دقيقة الصمت هذه . واجتاح بعض الأشخاص المنصة ليقبلوني فانهمرت الدموع من عيني .

وجاءني بعد الندوة رجل أشيب الشعر يتوكأ على عصاه وقال لي :

ـ أنا عضو في الحزب الشيوعي منذ ١٩٠٥ وسأزكي قبولك في الحزب اذا أردت ذلك .

وكانت احدى كبريات صحف موسكو قد نشرت ، قبل ذلك بأيام ، ردا على قصيدتي « اعتبروني شيوعيا » نقدا تحت عنوان «اني أعارض» . وقال كاتب هذا المقال انه سيدلي بصوته ضدي يوم أن أطلب قبول عضويتي للحزب الشيوعي السوفييتي .

وهكذا أجد أمامي أحد المحاربين القدامى في صفوف الثورة يقول لي :

ـ ان ما قلت عن كوبا وكتبت عن بابي يار واحد لا يتجزأ . لقد قضيت عاما في معسكرات الاعتقال الستالينية ويسعدني أن أرى أن قضيتنا ، نحن البلاشفة القدامى ، لا زالت حية بالرغم من كل الخيانات .. هذه الثورة التي بدأناها نحن تواصلونها أنتم اليوم .

فبكيت لأول مرة أمام الناس بالرغم من اني لست عادة عاطفيا، وقدمت «بابي يار» بعد ذلك بأيام الى صديق يعمل في «الليتراتورنايا جازيتا» (المجلة الأدبية) فجرى فورا الى المكاتب المجاورة وجمع كل زملائه وأجبرني على قراءة قصيدتي بصوت عال ، وقال في النهاية .

ـ كن لطيفا .. أعطني نسخة منها .

ـ وقدم لي آخرون نفس الطلب فسألتهم « كيف كان ذلك » ؟ لقد جئت بالقصيدة لأنشرها في صحيفتكم .

فنظر الصحفيون بعضهم لبعض مبهورين كما لو كان طلبى هذا ضربا من الجنون ، وفجأة قطع أحدهم الصمت وصاح :

ـ اللعنة على ستالين .. لا يزال يقبع فى نفوسنا .

وبجرة قلم وقع على أوراق قصيدتى موصيا شخصيا بنشرها ولكنه نصحنى بحذر :

ـ لا تذهب الآن ، فرئيس التحرير لم يقرأها بعد ، وبلا شك سيكون لديه أسئلة يوجهها لك .

وظللت محبوسا فى غرفة التحرير ، ومن آن لآخر كانت تظهر من خلال الباب وجوه فضولية تتفحصنى كما لو كنت حيوانا غير مألوف ثم جاء احد عمال الطباعة وهو بملابس العمل وصافحنى قائلا :

ـ لقد قرأ الجميع يا ابنى « بابى يار » فى الورشة .. هذا عمل حسن لقد اشتركت فى شبابى فى فرق العمال التى تدافع عن اليهود ضد الاضطهاد العنصرى .. الرجل الشريف لا يمكن أن يكون معاديا للسياسة لقد احضرت لك فودكا وخيارا مخللا من طرف عمال الطباعة ، وكلهم معك .

واخيرا طلبنى رئيس التحرير .. لم يكن شابا ولكن عينيه القرويتين اللتين رأى بهما اشياء كثيرة نظرت لى بفهم وقال لى :

ـ قصيدة جيدة .

كانت الخبرة قد علمتنى أن المحادثة التى تبدأ بهذه الجملة تنتهى لا محالة برفض النشر .

ثم قال رئيس التحرير بهدوء :

ـ لقد قلت أشياء صحيحة .

وكلما استرسل فى تفسيراته المهذبة ، ازداد يقينى انها لن تنشر ، ولكن يا للعجب لقد انتقل رئيس التحرير فجأة من اللهجة الرسمية الى لهجة الأحاديث الشخصية :

ـ انا شيوعى ، يجب أن تفهم ظروفى ، لا استطيع أن أرفض قصيدتك .. ولكن انتظرنى هنا بعض الوقت .

نسخة تساوى وزنها ذهبا :

وذهب .. وفى حوالى الساعة السابعة أطلعتنى سيدة جميلة شابة ، وهى رئيسة مهندسى الطباعة ، على بروفات العدد .. كان المكان المخصص لقصيدتى لا يزال شاغرا ، وقالت لى السيدة :

ـ لا تخف ، حروف قصيدتك مجموعة ولا يوجد اى عائق فنى لظهورها .. نحن فقط فى انتظار أمر الطبع من رئيس التحرير لكى نضمها للعدد .

وظللت منتظرا وبدت لى الساعات أطول مما كانت فى أى يوم من الأيام ، ولم يعد رئيس التحرير الى مكتبه الا فى الحادية عشرة والنصف وكانت زوجته معه .. فقال لى وهو يبتسم :

ـ لقد ذهبت لاحضارها من منزلنا الريفى لكى آخذ رأيها .. وهى فى صفك !

ونزلنا الورشة معا وأشارت السيدة المهندسة بيدها وبدات اسطواناتت الروتاتيف تدور وبعد ذلك بدقائق أحضر لي عامل الطباعة العجوز أول نسخة مطبوعة وبها « بابى يار » وقال لى :

ـ احتفظ بها فسيساوى وزنها ذهبا فى المستقبل .

كان محقا فى ذلك فقد بيعت « الليتراتورنايا » فى هذا اليوم بسرعة صاعقة وتسلمت فى نفس الليلة عددا كبيرا من برقيات التهنئة ، أغلبها من أشخاص مجهولين .

غير أن « بابى يار » بعد نشرها لم تحظ برضاء الجميع ،

وبعد ذلك بيومين نشرت صحيفة « الأدب والحياة » قصيدة لالكس ماركوف ردا على « بابى يار » تعتنى فيها بالقزم الذى يسب شعبه .

وبعد ذلك بأيام أثبتت هذه الصحيفة فى دراسة طويلة انى أنشر الضغينة بين الشعوب وأخون سياسية الأممية اللينينية ولم تنجح هذه الاتهامات السخيفة فى اخفاء السعار الشوفينى » لدى هؤلاء الكتاب(١) .

وتضخم حجم الرسائل التى تصلنى وجاءتنى خطابات من جميع أنحاء العالم . وذات صباح زارنى شابان قامتهما مديدة مهيبة ، ومع ذلك كان يبدو عليهما انهما خجولان وقالا لى وهما يتعثران فى الكلام تقريبا :

ـ يا رفيق افتوشنكو .. لقد علمنا انك تلقيت تهديدا بسبب

---

(١) نسبة الى الكاتب الفرنسى شوفان ـ والمقصود بهـا التعصب الوطنى ـ المترجم .

قصيدتك « بابي يار » وقد كلفتني الجمعية العمومية لشبيبة المعهد « أ » بحمايتك .

فسألتهما :

ــ مما تريدان حمايتي ؟ خطابات التهنئة التي أتلقاها تزيد مئات المرات عن خطابات التهديد .

فأجاب الملكان الحارسان :

ــ لا بأس .. ان شعبنا ذكي ، ولكننا لم نصل الى المرحلة التي اختفى فيها كل الأوغاد .. نرجو أن تقبل مساعدتنا .

وسألتهما :

ــ هل أنتما مهتمان بالشعر بشكل خاص ؟ هل قرأتما قصائد أخرى ؟

فتمتم الأول وهو محرج :

ــ الحق أن كلانا غير متفوق بشكل خاص فيهذا النوع .. لقد اختارنا زملاءنا لأني بطل ملاكمة ولأن صديقي عضو الفريق الوطني للمصارعة الحرة .

وظلا يتبعاني عدة أيام كالظل وبالرغم من أن حراستهما لي كانت مؤثرة الا أنها كانت عديمة الجدوى .. كنت أشعر انه يجب على العكس ارسال حرس خاص لماركوف الذى كف عن الظهور في المجتمعات العامة حتى لا يتعرض له الجمهور .

وقد حاولت الصحافة الغربية أن تستخلص من المحركة حول « بابي يار » الدليل على احتدام معاداة السامية في الاتحاد السوفييتي . وأنا أرى أنها دليل على عكس ذلك تماما .. فمن بين

الـ ٣٠ ألف رسالة التى تلقيتها كانت ٣٠ رسالة فقط من طرف أعداء السامية !

وفى العام الماضى مرت قصيدة أخرى لى « ورثة ستالين » بظروف صعبة . فقد تعرف البعض على أنفسهم تحت هذا العنوان فاتهمونى بمعادات الاتحاد السوفييتى ، ورفضت هيئات التحرير نشر القصيدة مدة ١٢ شهرا ، غير انه لم يكن فى مقدور أحد أن يمنعنى من القائها فى الندوات الشعرية ، وعندما كنت أنسى ذلك مصادفة كان المستمعون يطالبوننى بها .

وقد أرسلتها لخروتشوف شخصيا وانتهى اولأمر بنشرها فى البرافدا نفسها وبفضل تدخل خروتشوف أيضا تم نشر قصة « سوليتجين » : « يوم فى حياة أيفان دنيسوفيتش »(١) وهذا النشر يعتبر مرحلة حقيقية فى تطور ادبنا !

---

(١) أشهر رواية فى الاتحاد السوفييتى خلال السنوات الأخيرة ، بيع منها يوم ظهورها ٩٥ ألف نسخة .. مؤلفها « سولينجين » كان جنديا فى الجيش نال وسامين فى الحرب العالمية الثانية .. قبض عليه سنة ١٩٤٢ لنقده ستالين .. وموضوع الرواية يوم عادى فى حياة سجين باحد معسكرات الاعتقال فى سيبيريا ، ويبدو هذا اليوم ، من فرط بشاعته والأهوال التى يلاقيها فيه السجين ، حياة بطولها لا يوما واحدا ـ المترجم .

نفسح الطريق لغيرنا :

أصبح العقائديون المتزمتون اكثر فأكثر ، عاجزين عن منع انتشار الديموقراطية في بلادنا ، وانا لا تسكرني الأوهام المتفائلة ، فمهمتنا صعبة تعترضها العقبات . فقد نجح الجيل العقائدى القديم فى تكوين احتياطى يمكن أن يشكل خطرا ، ولا شك أن تطور فننا سيصادف مصاعب كثيرة واننا نتحمل صدمات التطور المعقد للأوضاع السياسية والاقتصادية والعالمية ، وانا لا اغمض عينى عن ذلك .

ولكنى أعتقد انه يتعين على المرء أن يكون أعمى حتى لا يرى التغيرات الهامة التى حدثت فى بلادنا منذ وفاة ستالين .

فمنذ عام ١٩٥٢ نعيش ثورة معنوية معقدة تتطلب منا مزيدا من الصبر والطاقة .

ولا تملك العقائدية ، الجديدة منها والقديمة ، أى شيء حيال ذلك لأن أغلب السوفييت ـ والشباب منهم خاصة ـ متمسكون بأفكار التقدم وعازمون على انجاحها .

ويدهش الغربيون أحيانا عندما يرونا نكثر من الكلام عن ماضينا ، ولكن ذكر الماضى بالنسبة لنا هو تفكير فى المستقبل . فنحن نريد أن نحمل معنا كل ما هو طيب فى تراثنا وأن نترك للماضى ما للماضى .

لقد ارتكبنا أخطاء كثيرة ولكننا كنا أول من سلك طريق تحقيق الأفكار الاشتراكية ولعلنا ارتكبنا هذه الأخطاء حتى لا تضطر البلدان التى تسير فى نفس الطريق الى الوقوع فيها مرة أخرى .

فهرس

صفحة

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

وزارة الثقافة
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

